

محمود السعدني

عودة الحمار

محمود السعدنى

عودة الحمار

الجزء الثانى من

حمار من الشرق





الفيلسوف الضاحك

بقلم : خيرى شلبى



من أبرز الصفات في شخصية محمود السعدني أنه مثل الصبار لديه قدرة هائلة على الاستغناء . إنه يعرف مقدما أن هذه المقالة أو تلك قد تؤلب عليه الدنيا كلها ، وقد تحاربه في رزقه ، على الأقل تحرمه من بعض ما يستحقه من مكافآت مادية أو أدبية قد يخسر صديقا يستعدى عليه مسئولا تسلطيا يوغر صدر وزير أو رئيس وزراء أو رئيس دولة من الدول أو طائفة من المنتفعين بسوء وضع من الأوضاع . ومع ذلك يكتب المقالة غير عابىء بما سيحدث ولسان حاله ينطق بالمأثور الشعبي الدارج : إن شاء الله تخرب .

إنه من فرط ما كابد الفقر والحرمان ، ومن شدة ما عاناه من هموم العيال ، ومالاقاه من غدر الثورة التى ألقت به في غياهب السجون دون ذنب أو جريرة ، أصبح يعتقد أنه مهما ادلهمت الحياة أمامه فلن يحدث له أفظع مما حدث من قبل . الجوع ؟ إنه مدرب عليه . الطرد من الوظيفة؟ إنه ياما طرد . السجن ؟ لقد سجن . التشهير ؟ لن يصدقهم أحد . لقد ضرب المثل في قوة الصبر والصمود واحتمال المكاره ومقالب الزعماء والملوك العرب . ولا أظن أن مذكرات الولد الشقي بأجزائها قد عبرت عن حقيقة العناد الشديد الموجع الذى

كابده في رحلة المنفى ، ويبدو أنه قد ترفق بأعصاب قرائه فأعطاهم عصيرا مخففا لكي يحتملوه ، وضع لهم فوق الخمر السعدني المعتق بعض مكعبات الثلج والصودا .. أما الصورة المروغة بصحفي ذي مبادىء أخلاقية وسياسية معينة حين يكتب عليه قدر غاشم أن يقضي سنوات من عمره ، أحلى سنوات عمره راحلا من بلد إلى بلد تحت جنح الظلام ، يجر خلفه زربة عيال بينهم الحبيبة هالة المريضة يبحث لها عن طبيب نطاسي يجرى عدة عمليات جراحية تتكلف الآلاف المؤلفة من أموال لا يملك هو منها مليما واحدا ، بعد أن تنصل منه أصحاب الوعود من زعماء وملوك هيأ لهم غباؤهم أنه يمكن أن يكون جنديا في كتائبهم تحت أمرهم يكتب مسبحا بحمدهم إذا هم عالجوا له ابنته فإذا بهم يكتشفون أن نقبهم على شونة وأنه لن يتورع عند اللزوم عن سلخهم بكرباج السخرية النقدية ، فقلبوا له ظهر المجن وتوعدوه بعد أن كانوا قد وعدوه فإذا هو أذكى وأسرع إلى الهرب من بطشهم .. هذه الصورة التي وردت في مذكرات السعدني على سبيل الدردشة بذكريات موجعة تكشف لنا إلى أي حد يتطابق السعدني مع أصالة الصبار .

ولكن هذه الخصائص قد تتوفر في كاتب من الكتاب ومع ذلك لا تحقق له نجاح محمود السعدني ولا شهرته ولا مكانته المرموقة عند الجماهير العريضة والمسئولين معا . ما لم يكن في قلب محمود السعدني من متاع الصبار . أعني المكابدة ضد عوامل القهر والفناء، رفع أرصدته الشعورية في بنك التجربة الحياتية ، بحيث يكون الكاتب أشبه بأرشيف حي للمشاعر القومية على نظام دقيق لا تفلت منه شعرة .

إن محمود السعدني يضغط على زر في صدره فإذا هو تلبسته شخصية قهوجي بعينه من آلاف القهوجية في وجدانه فيشعر بمشاعره ويفكر بطريقته ويعبر بلسانه حتى لا تجد أدنى فرق بينه ككاتب وبين الشخصية التي يشف عنها . وهكذا الأمر بالنسبة لأنماط لا حصر لها من الشخصيات المصرية الصرفة من أقاصي البلاد إلى أقصاها . من أعماق الريف إلى قاع المدينة ، من وجهاء القرية إلى وجوه السلطة فوق دست الحكم .

تعبيراته كذلك ليست موضوعة ، ليست منحوتة بقلم يكتب ، إنما هي قطرات من عصير الحياة في الشارع في الحارة في المقهى في الحقل في ديوان الموظفين في كل مكان فيه حياة .. هي تعبيرات دامغة مفحمة لا تقبل الرد أو اللجاجة .. ذلك أنها بنت التجربة العملية شارك في صنعها الملايين فأودعوها مشاعرهم وظلال بيئاتهم وإشعاع ذواتهم وفيض حكمتهم .. هذا - ربما - يفسر لنا المسحة الفولكلورية الناطقة في أسلوب محمود السعدني أنه يستخدم نفس اللغة العربية التي يكتب بها الجميع قديما وحديثا ، ولكن اللغة عنده تبدو فوق عروبتها مصرية تلبس العمامة المملوكية واللباس أبو دكة بشراريب والبنش والملاسة . هي لغة رغم فصاحتها وأصالتها وجزالتها والتزامها بفنون البلاغة العربية الموروثة تكاد - لفرط سيولتها بالسهل الممتنع - تكون عامية واضحة لجميع الأفهام ، كلغة السير الشعبية وألف ليلة وليلة وابن إياس والجبرتي ، فصحى عريقة ولكنها أخذت من العامية المصرية رصيدها الفني من الشحنات الشعورية كلغة نتكلم بها ونفكر ونحلم ونتوجع ونغني ونحزن بها . وهذه الشحنات الشعورية في أسلوب السعدني أصبحت لغة مزاجها

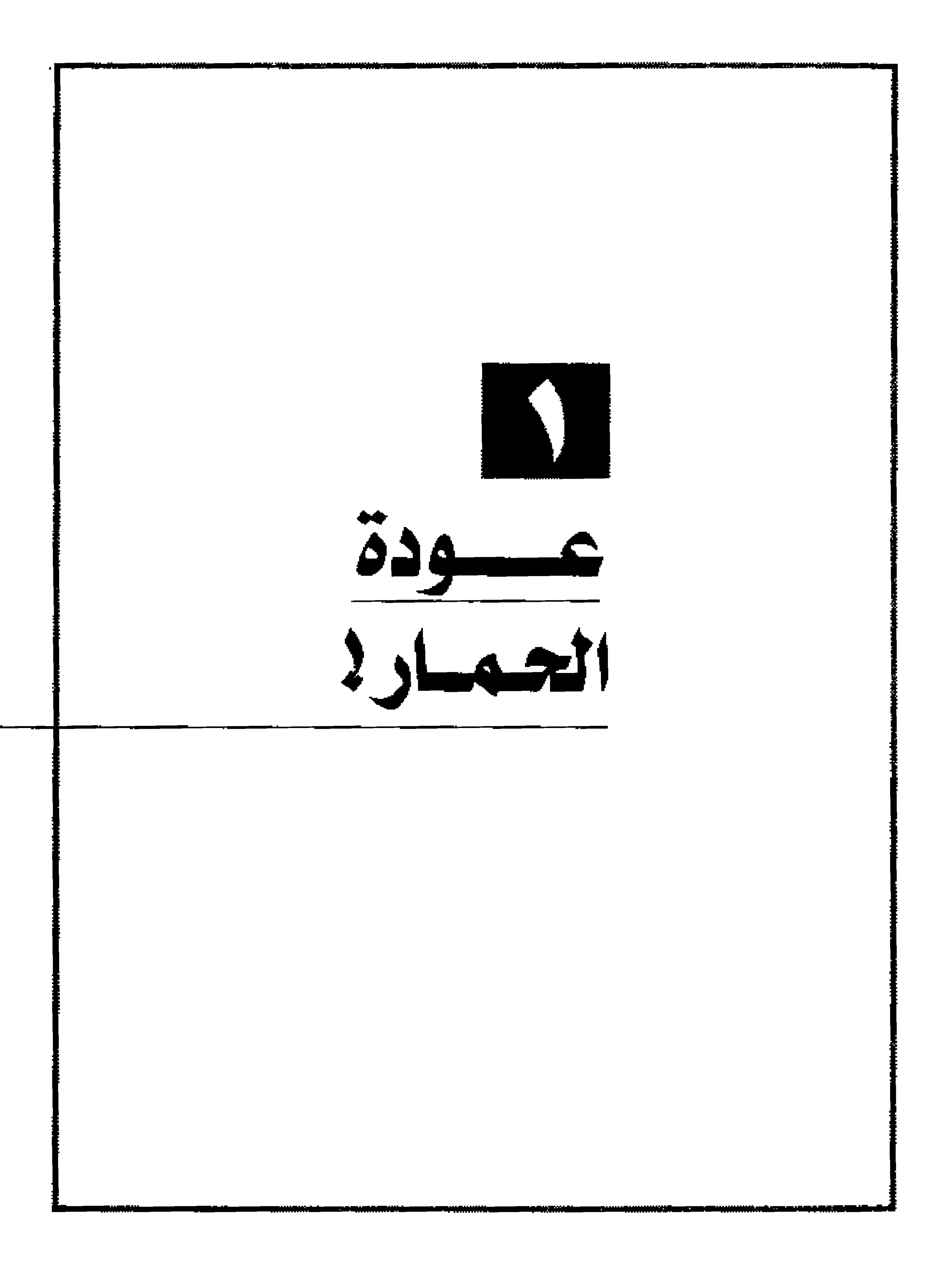
رايق جـدا .. أصـبـحـت تتـحـزم وترقص عـشـرة بلدى بالعـصـا ، وبالشمـعـدان . تلطم وتصـرخ كنسـاء مـصـر الثكالى المنكوبات على امتداد التاريخ بفقد رجالهن وعيالهن فى أعمال سخرة أو حروب مجانية ، تغنى بالموال والدور والطقطوقة والمونولوج الشكوكى وتتعارك بالنبوت وبالكرسى والروسية تردح بالصوت الحيانى لمن يجدر به الردح من البكوات الزائفين بتوع الحلمبوحة تتسلطن فى العصارى مع واحد شاى ومبسم النرجيلة لتتلقى أخبار الحى بأريحية وحميمية لتلعب دورا في درء المصائب أو إغاثة ملهوف أو مساعدة محتاج فى مواجهة عدوان .

تلك هى لغة محمود السعدنى وهى تمثيل لمكوناته الشخصية، إذ هو مخلوق ليكون عمدة أو قعر مجلس أو شيخ طريقة أو زعيم عصابة فيها كاريزما قوية طاغية يملك بها التأثير الفورى على أعتى شخصية تجلس إليه لدقائق معدودة .. ولولا أن ضمير الكاتب فيه هو الأصل الراسخ لكان لمحمود السعدنى مستقبل باهر فى مجالات كثيرة جداً . لديه مخزون لا ينفد مطلقا من مادة للحديث . تتفرع الحكايات وتنسلخ من بعضها تماما كألف ليلة وليلة وتتدفق النوادر والطرف والملح بغير حساب ، قدرته مذهلة على التحدث ببساطة شديدة من أمور شديدة التعقيد .

وفى وجود السعدنى فى أى مجلس ينسى الجميع تماما أنهم قادرون على الكلام ، فأى متكلم فيهم لابد أن يصيبه الإحباط فى الحال إذ هو لا يملك شيئا ولو يسيرا من خفة الظل هذه ولا كل هذا الثراء من الحكايات والمواقف والتجارب ولا هذه القدرة على ربط كل هذه البوارق ببعضها فى لغة سحرية مبهرة لهذا يفضل الجميع

الصمت والإنصات . عندئذ تكون الكلمة مسعفة حيث يقتنع جليس السعدنى بأنه من الحمق أن يضيع على نفسه هذه الفرصة العظيمة فى سبيل أن يثبت حضوره فى القعدة بكلمتين ستبدوان لابد فارغتين أمام هذا السيل المنهمر من الكلام الملآن بالتجربة كالوثيقة ، الطافح بالبهجة كفرح غامر .

إنها عملية تشخيص يتحول فيها محمود السعدنى إلى فنان مسرحى عملاق يروى ويشخص فى نفس الآن ، يلعب جميع أدوار الأطراف الغائبة فحين يقول مثلا .. قال لى فلان ، فإن فلانا بلحمه ودمه يقول فى صوت السعدنى ويتكلم بنفسه بلهجته بكل ما ينطبع على اللهجة من صفات وخصائص نفسية واجتماعية وثقافية خاصة بالذات المتكلمة وهكذا ستجد داخله كوكبة من البشر فى شخص واحد .. وإنى لزعيم بأن السعدنى لو جلس على أية خشبة مسرح وأطلق لحديثه عنان الوهج فلن يصمد أمامه فى الساحة المسرحية لا عادل إمام ولا صبحى ولا سمير غانم ولا أى مضحك آخر ، لأنهم مضحكون أما هو ففيلسوف يضحكنا على أنفسنا .. على خيبتنا على أوضاعنا المقلوبة !



١

عـــودة الحمـار!

وهكذا عاد الحمار بسلامة الله بعد أن حافظ على تراث الأجداد والآباء ، وبعد أن أثبت أن هذا الجحش من ذاك الحمار . عاد بعد أن اشترك في واحدة من أشرس معارك الحمير ، حلقة جديدة من سلسلة طويلة بدأت بداحس والغبراء وحرب البسوس ، وحروب مسيلمة الكذاب ، والقيسية واليمنية ، ومعركة الزاب الكبرى ، وحروب الخوارج والزنج ، ومغامرات ومؤامرات ملوك الطوائف ومذابح القرامطة والحشاشين .

عاد الحمار بعد أن احترق بنيران أم المعارك . عاد برأس مبطوح وجسم مقروح وعين مقلوعة ورجل مسلوخة ، عاد بعد أن تبدد رأس المال كله ونفد المخزون كله وسيطر الخراب والدمار ، ولكن لا شيء يهم .. على رأى إحسان عبد القدوس ، المهم أن جميع أصناف الحمير أثبتوا أنهم من صنف الأشاوس ، ونساءهم من صنف الماجدات . وما قيمة الإنسان إذا لم يمتشق سيفه ويهز رمحه وينازل الأعداء ، فإذا لم يجد أعداء فليضرب فى أبناء جلدته وعشيرته ، فالحرب قائمة والقتال دوار . وحتى إذا انتهت القبيلة وأبيدت العشيرة ، فلابد من استمرار الحروب ولو مع أفراد الأسرة نفسها ،

فهذه تعاليم السماء نفسها .. وأعدوا لهم ما استطعتم من رباط الخيل والقوة . ضعاف الإيمان يقولون إن تعاليم السماء تقصد الأعداء .. أعداء الأمة . ولكن الذين يقولون هذا الكلام يؤثرون الراحة وعدم الخروج من الواحة ، مع أن الأمر صريح ولا يحتاج إلى اجتهاد المفسرين .. وأعدوا لهم ، لهم بدون تحديد ، فالمهم أن تكون هناك جبهة أو جهة ينطبق عليها هذا الوصف (لهم) للأعداء للأصدقاء للأبناء .. لا شيء يهم ، شعار قبائل بني حمير قواهم الله . المهم أن الحمار عاد وكأن شيئا لم يكن وبراءة الأطفال في عينيه ، عاد الحمار بلا هوية وبلا ذاكرة . عاد يلعق جراحه ويهذي الحمار الضعيف عاد يطالب بحقوقه في الحدود ، يطمع في الاستيلاء على عدة كيلومترات من رمال الصحراء وعدة أميال من شاطيء الخليج . مع أن الأمور في أيام العزة كانت تسير على نحو مختلف ، كانت الصحراء ملك الجميع والبحار أيضا . أما الحمير الأضعف فهم يطالبون بالأسرى .. أي أسرى ؟ لقد انتهى كل شيء وراح منهم من قتلوه ومنهم من ذبحوه ذبح النعاج . وأصحاب الشأن الكبار لا يرغبون في فك الاشتباك ، فوجود حالة التوتر ورفع سخونتها بين الحمير الضعاف والحمير الأضعف تتيح للسادة الكبار فرصة طيبة لبيع السلاح والحصول على قيمة فواتير الحراسة . عيب صنف الحمير أنهم يصنعون نفس الشيء الذي يريده الأعداء . يصنعونه بجدارة وبإتقان . البعض يقول إنهم عملاء ، ولكنهم في الحقيقة مجرد حمير . فالعملاء (أذكياء) يصنعون ما يريده الأعداء ويقبضون ثمنه . ولكن الحمير يصنعون ما يريده الأعداء ويدفعون التكاليف من عرق جبينهم ، يعني : موت وخراب ديار . ولذلك نفدت خزائن الحمير المتشاجرين والحمير الذين

فى الجوار والحمير الذين فى الوسط والحمير الذين فى الأطراف . وعلى الرغم من الخراب والإفلاس فإن جميع الأطراف مشغولة بشراء الصواريخ ، ثم بشراء الصواريخ المضادة للصواريخ .

وفي فترة ما قبل الحرب انشغل الحمير بموضوع فى غاية الأهمية : ما هو أصلح طريق لتنظيم حياة الحمير . بعض الحمير رفعوا شعار : « حرية اشتراكية وحدة » ، وحمير آخرون رفعوا شعار : « وحدة اشتراكية حرية » . ولكنهم لم يحققوا شيئا على الإطلاق ، لا حرية ولا وحدة ولا اشتراكية . ولكن الحرب استمرت فى الصحف وفى الإذاعة . والنظام المنشود تحقق فى الأناشيد الوطنية وفى الموسيقى الحماسية وفى الخطب المنبرية . بددوا الثروة وأضاعوا الثورة والوقت وضيعوا الأمة ، والذى يكوى القلب أن الخلاف لم يكن حول الشعار ولا حول المبادىء ، ولكن حقيقة الخلاف كانت حول : لمن تكون القيادة اليوم ، للمهيب أو للعقيد أو للأمير أو للملك أو للرئيس أو للسلطان أو للشيخ ؟ فالرئاسة هى الأساس وما عداها باطل وقبض الريح وحصاد الهشيم . كارثة كبرى لاحظها بجدارة عمنا ابن خلدون فقال : آفة العرب الرئاسة . برافو عمنا ابن خلدون .. لقد وضع يده على الجرح . ولكن الخطأ الوحيد الذى وقع فيه أنه اعتبرها آفة . مع أنها ضرورة وروشتة لا تقبل المراجعة لمن يريد أن يتذوق رحيق الحياة . فعندما تكون رئيسا فأنت المفتى وأنت القاضى وأنت الشاعر وأنت الذواق وأنت الفنان وأنت القائد وأنت الاستراتيجى والتكتيكى ، وأنت الشاعر الوحيد والمفكر الوحيد ، وكل التوجيهات تصدر من عندك . وكل النصائح هى من فيض عبقريتك ، وأخبار تنقلاتك وتحركاتك ، هى نشرات الأخبار وتصريحاتك رد فعلها

سلسلة من الهزات في الداخل وفي الخارج . ومرض سيادتك يصبح سرا حربيا ، وأيا كان رأيك فهو الخط القومي والوطني للدولة . تستطيع أن تتجه يمينا أو يسارا ، شرقا أو غربا ، اذهب حيث تشاء وسيتبعك الجميع أينما تسير ولذلك ليس للمواطن في بلاد الحمير إلا أن يمشي وراء الرئيس أو الأمير أو الشيخ أو الملك أو السلطان ، أو تمشي أمامه . ولكن كيف يمشي المواطن أمامه إذا كان المشي نفسه مقيدا والتجول ممنوعا ؟ كل هذا صحيح ومع ذلك ما أقوله أنا هو الصحيح .. فالواقع يؤكد أنه ليس أمامك أيها المواطن الحمار إلا أن يمشي وراء الأمير أو السلطان أو الرئيس أو الشيخ إذا أردت أن تكون من الحاشية أو الخدم أو المسحوقين أو الحالمين بلقمة طرية ونومة هنية مع الالتزام بالمشي جنب الحيط . أما إذا أردت أن تقاوم أو تقاوح أو ترفض أو تعترض فليس أمامك إلا أن تمشي أمامه . كيف ؟! عندما يأتي المخبرون ليقتادوا سيادتك إلى سجنك أو إلى منفاك أو إلى مشنقتك فمن الطبيعي أن تمشي أمامهم ، أولا : ليكون قفا حضرتك هدفا سهلا لأكفهم ، ومؤخرة سيادتك هدفا قريبا من أحذيتهم . وعلى كل مواطن أن يختار مكانه ، في الخلف أو في الأمام . ليس في بلاد الحمير مكان في الوسط . الوسط ممنوع . ومن يختر الوقوف فيه يكسر وسطه ، الوسط الوحيد المسموح الوقوف فيه هو وسط الملعب ، ويسمونه في العصر الحميري (النص) ولدينا أكثر من كابتن يحمل لقب ملك النص . ومع أن هذا اللقب يستحقه جميع اللعيبة . لأننا لا نشاهدهم في الملعب أثناء اللعب إلا في (النص) فنحن في منتهى الزهد لذلك لا نطمع في تسجيل أهداف ، باعتبار أن الطمع يقل ما جمع . وهل جمعنا شيئا ؟! نعم ! في بعض نواحي

العصر الحميرى استطاع البعض أن يحرز بطولة أفريقيا ، ونجح البعض الآخر فى إحراز بطولة آسيا . وبعضهم اشترك فى كأس العالم . ولكن هذا هو الاستثناء الذى يثبت القاعدة . كما أن هناك متناقضات كثيرة فى العصر الحميرى ، لدينا ديمقراطية واسعة وبلا حدود فى كل شىء إلا فى السياسة ! فى المرور تستطيع أن تمشى على اليسار أو على اليمين لا شىء يهم .. حكمة الحمير أن التحديد شىء سخيف وليس له معنى . ففى إنجلترا مثلا السير على اليسار ، وفى فرنسا السير على اليمين . ولذلك رأى الحمير أن يستفيدوا بجميع التجارب وأن يطبقوا النظامين فى وقت واحد . وممنوع مثلا أن تقطع شوارع المدن الكبرى بسيارة هلكانة ومهكعة .. رفارفها مخلوعة وسقفها منزوع وبوزها محطم ، ولكن فى العصر الحميرى كل المركبات حلوة وكل المركبات مسموح لها بالسير حتى تحترق وتتحول إلى رماد . وفى الدنيا كلها ممنوع استعمال الأبواق والكلاكسات منعا باتا للتلوث السمعى .. تلوث سمعى ؟! هاها .. نكتة بايخة بالتأكيد . فى بلاد الحمير توجد أعظم فرقة موسيقية فى العالم وهى السيارات التى تجرى على الطريق ، أضرب نفير أضرب كلاكس ، من حقك أن تستعمل سارينة سيارات الشرطة والإسعاف والحريق . فى بعض البلاد ممنوع أن تركن سيارتك حتى ولو كانت الركنة بجوار الرصيف . ولكن فى بلاد الحمير الركنة فى وسط الشارع ممكن ، وفى نهر الطريق مباح ، ففى بلاد الحمير راحة المواطن هى الهدف . المواطن العادى ، فما بالك بالمواطن راكب السيارة ؟! العكس تماما يحدث فى مجال السياسة ليس أمام المواطن فى السياسة إلا التطرف . من حقك أن تطيل ذقنك حتى تصل إلى

ركبك ومن حقك أن تربى شعر شنبك وشعر حواجبك ورموش عينيك وتصبح درويشا من دراويش السلف الصالح ومن حقك أن تكون متطرفا حكوميا . تلطم الخدود وتشق الجيوب وتبكى على الأطلال وتموت حبا فى الحكومة ، تهتف من أعماقك بالنشيد القومى .. بالروح بالدم نفديك يا سيدى أو يا عمى أو يا تاج راسى . وإذا لم يرق لك هذا أو ذاك فتستطيع أن تلوى بوزك وأن تتكلم بالحنجورى وتغنى بكل شىء وأى شىء ،فى المنظور المتواضع من أجل الموقف الاستاتيكى المتنامى المتسارع على الوجه الأكمل فى سبيل رفع مستوى الطبقات المطحونة وعدم استغلال عرق الشغيلة من أجل مضاعفة الأمزج والأنفخ للسادة والمتصعلكين والمستغلين للتناقض الرأسى والأفقى والمتسطح والمفروش على الأرض الفضاء . المهم أن تتطرف ، فى صف الحكومة ، فى خيمة سيدنا عباس بن فرناس ، فى أيديولوجية الرفيق شنكوف بن بريماكوف . المهم أن تتطرف فى أى اتجاه ، أما إذا أردت الوقوف فى النص أو فى الوسط فنهار أبوك أزرق . لن تحصل على أى شىء من بلح الشام أو عنب اليمن . ولكن لا شىء يهم على رأى بعضهم ، المهم أن الحمار عاد مبطوحا ومجروحا نحيفا وضعيفا . جاء ليبحث عن نفسه وعن المرأة الخواجاية التى وقعت فى غرامه وتبعته إلى كل مكان ، بحثنا عنها فى فرنسا فلم نعثر لها على أثر ، بحثنا فى الجزر البريطانية ولكن دون جدوى ، قلنا ربما هاجرت إلى استراليا ولكن استراليا ردت بالنفى ، قلنا ربما أعجبها الحال فى بلاد النفط ، ولكن البحث لم يؤد إلى نتيجة . أخيرا عثرنا على الست الخواجاية فى قرية مهجورة وصغيرة فى الواحات الداخلة . بيوت القرية لا تزيد على عشرين بيتا يتوسطها

معبد فرعوني قديم . عندما رأتنا اشمأزت وامتعضت . ثم بصقت علينا وكأنها تبصق على جنسنا ، حاولنا العودة بها ولكنها رفضت ، قلنا لها أنت زوجة لهذا الحمار الطيب ، وإذا هجرت بيت الزوجية فأنت ناشز وليس أمامك أى حل إلا بيت الطاعة ، سألت : وما هو بيت الطاعة ؟ قلنا : مسكن يحتوى على الضرورات لاستمرار الحياة ، دورة مياه متواضعة ومطبخ أو بمعنى أصح مكرومطبخ وشق نوم .. لا أقول غرفة نوم . ولكن مجرد شق فى الحيطة ، شق يتسع لسرير مفرد يكفي لنوم فرد يعاني فقر الدم هذا هو بيت الطاعة الشرعى .. هل لديك اعتراض ؟

هدأت المرأة الخواجاية وسكتت ثم تبعتنا فى هدوء ، بعد عدة أميال من السير على رمال الصحراء أدركها التعب ، فجلست وبكت وانهمرت دموعها .. يا ولداه ! قالت تخاطبنا : يا وحوش يا حيوانات ، عندكم مثل شعبى جميل .. كل شىء بالعافية إلا الحب .. بالمزاج ، فكيف جاز لكم أن تجعلوا الحب بالعافية وفى بيت الطاعة وهو بيت يسد النفس عن النوم وليس الحب . شخطنا فى البنت الخواجاية وهددناها بقبضات أيدينا ، وقلنا لها : وحياة أبوكى إحنا مش ناقصين واحدة زيك حتى تهدينا إلى سواء السبيل . فنحن أحفاد حضارة تمتد جذورها فى التاريخ إلى ٧ آلاف عام . ضحكت البنت الخواجاية وتقصعت وقالت مستهزئة :

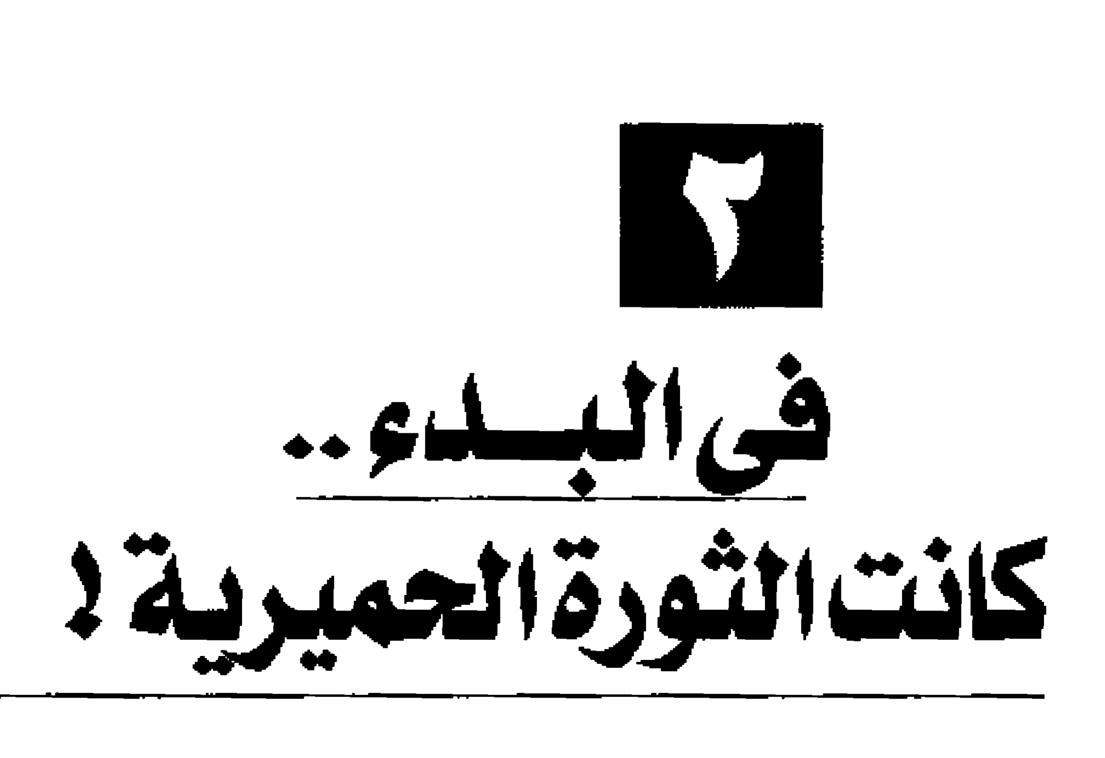
تتصورون أنكم أحفاد بناة الأهرام ومعابد أبو سمبل ؟! يا جماعة اتكسفوا على دمكم وحطوا فى عيونكم فص ملح . وهل معقول إنكم من صلب هؤلاء الذين شيدوا المباني فعاشت ٧ آلاف سنة ، بينما أنتم شيدتم المباني فسقطت بعد سبعة أشهر ؟! حافظوا على جثث الموتى

فعاشت آلاف السنين واحتفظت بجلدها وشعرها ، ودفنتم موتاكم فلم يبق منهم شيء بعد عدة أشهر ، حتى عظامهم انسحقت بفعل الرطوبة ورشح الماء . حاولنا أن نشخط فيها ونهددها بقبضات أيدينا ، ولكنها فرشت لنا الملاية على طريقة حارة رابعة وقالت لنا شامتة ومتشفية :

– لقد كشفت سركم وعرفت أصلكم وفصلكم ، وسأكشف كل شيء للعالم كله حتى تصبح فضيحتكم بجلاجل . يا ناس يا شر .. لقد قلتم لى - فى البداية : إنكم البقية الباقية من العصر الحميرى ، ولكنكم كذبتم فقدماء الحمير كانوا أفضل ، كانوا من النوع الحصاوى ولكنكم من النوع السوقى ! وأفضل لكم أن تخطبوا ودى وتقبلوا يدى ، أو الفضيحة لكم والعار .

وعلى الفور نصبنا خيمتنا ونمنا ليلتنا ، وهتفنا .. الصباح رباح يا بنت الدايخة يا كلباء يا بنت السلوقى .





٢

فى البـــدء..
كانت الثورة الحميرية !

البنت الخواجاية فرشت لنا الملاية على طريقة نسوان عرب المحمدى ، وانطلقت ترش الملح على جروحنا وقروحنا . وقال أحد الحكماء من صفوفنا : هذه ليست خواجاية ورب الكعبة ، إنها امرأة حميرية من أصلاب حميرية ، ولابد أنها من أصول تميمية وبطن من بطون الجبور ، ولعلها على علاقات نسب بقبائل المحمود والمطير والدهشان وكليب.واجهنا البنت الخواجاية بالحقائق ولكنها لم تتراجع ولم تهتم .

وقالت صارخة فى وجوهنا : لقد كشفتكم وعرفت أصلكم وفصلكم ، فالعصر الحميرى ليس ضاربا جذوره فى الماضى البعيد . ولكنكم أنتم السبب وأنتم الأصل . العصر الحميرى بدأ بكم وسينقضى بزوالكم ، فلن يكون هناك نسل من بنى حمير بعدكم ، وكانت بداية حموريتكم عندما تآمرتم ضد امبراطورية عظيمة كانت بلادكم ولايات تنتسب إليها وتعيش فى ظلها ، وساعدتم أعداءكم وأعداء الامبراطورية وقمتم بثورة أطلقتم عليها اسم « الثورة العربية » قادها ضابط مخابرات بريطانى .

ولم يحدث فى تاريخ البشر من قبل أن أشعل البعض ثورة واختاروا لقيادتها عنصرا من أحقر عناصر أعدائهم . كانت هذه الثورة هى الإعلان عن قيام العصر الحميرى . وتأكدت حقيقة العصر

الحميرى بعد ذلك عندما وقف بنو حمير جميعا يساندون أعداءهم ضد مخلصهم . وقف بنو حمير مع الانجليز ضد الألمان . مع أنها كانت فرصة للخلاص من عدوهم التاريخى الذى أشاع اليتم والخراب فى بلادهم . لو ساند بنو حمير هتلر ضد الحلفاء لانتهت مشكلة فلسطين إلى الأبد . وبالتأكيد كانت ستقوم دولة الوحدة من الخليج إلى المحيط ، اقتصاد واحد ودخل قومى واحد وجيش واحد وعلم واحد يرفرف فوق رؤوس الجميع . ودولة إسرائيل قامت فى اليوم نفسه الذى استسلمت فيه ألمانيا بدون قيد ولا شرط . كان مفتى القدس الحاج أمين الحسينى هو الذى كشف الملعوب ، ولذلك انضم إلى هتلر بصراحة ، وكان المفكر عباس العقاد هو مفكر العصر الحميرى وعلامة عليه . خسرتم قضيتكم بجهودكم وأموالكم وأضعتم حقوقكم بأيديكم وبعتم فلسطين عمدا ومع سبق الإصرار .

قلنا للبنت الخواجاية : أنت يا بنت حالة استثنائية ، أنت تفهمين الأمور من خلال سطحها ولا تنظرين فى الأعماق ، كانت الثورة العربية الكبرى من أجل الخلاص من استعمار غاشم وجهول استمر ٤٠٠ عام . استعمار غيب عقولنا ونشر الخرافة والجهل والغيبيات . صحيح أننا لم نحقق أهدافنا ولكن النية كانت سليمة والهمة كانت صادقة . ردت البنت الشعنونة : فى القضايا العظيمة الأعمال ليست بالنيات ولكن بالإنجازات التى تحققت وبالنتائج التى توصلت إليها ، هل سمعتم عن حكاية فلاح الشرقية الذى جاء إلى العاصمة فنصب عليه بعض اللصوص على الطريقة الأمريكية ؟ ألقوا فى طريقه بمظروف يحوى أوراقا مالية كثيرة . ثم أنكر أمام اللصوص أنه عثر فى طريقه على أى شىء . وأخرج لهم ما معه من نقود حقيقية ، والغريب أنهم عندما فتشوه لم يجدوا معه مظروف النقود المزيفة ،

فتركوه يمضى إلى حال سبيله . فلما خلا بنفسه اكتشف أن نقوده الحقيقية ذهبت مع الريح ، ولكن ماذا يهم ، ومعه أضعاف أضعافها وعندما ذهب ليقضى مصالحه بورقة منها اكتشف أنها مزيفة .. ماذا جنى هذا الفلاح الغلبان سوى الحسرة والأسف ؟ نيته بالتأكيد كانت سليمة ، وما فعله كان تحقيقاً لحلم راوده طويلا هو الانتقال من حال إلى حال ، والوثوب إلى وضع أحسن ، وممارسة الحياة فى مستوى أفضل . وهذا بالتمام والكمال هو ما حدث لكم تحت شعار الثورة العربية الكبرى ، تحررتم من الاستعمار العثمانى ولكن اكتشفتم أنكم أصبحتم فى العراء . لا قوة عسكرية تحميكم ولا اقتصاد قوى يغنيكم عن سؤال اللئيم . وضيعتم الشام فتحول إلى عدة كيانات ، كيان شرق النهر وكيان تركتموه تحت رحمة الإنجليز مباشرة ، وكيان للتصييف والترفيه ، وكيان للمشاكل والانقلابات . ووادى النيل انتقل من استعمار إلى استعمار مختلف ، وتركتم المغرب العربى كله من طنجة إلى طبرق على أساس أنه ليس منكم . وعشتم فى خرافة التحديث وكررتم اسطوانة الأصالة والحداثة ، واستوردتم من الغرب أسوأ ما فيه ، بعضهم رطن بحكاية الحنجورى المتعانق بالشنجورى ، ومن كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته . وبعضكم طالب بالديمقراطية وانتخابات حرة وأن يكون الاحتكام لصندوق الانتخاب ، هو الذى يولى وهو الذى يحكم من يكون فى المكتب ومن يكون فى الطراوة . وهو عبط أزلى وسذاجة ربما أضعاف فلاح الشرقية الذى ضحكوا عليه فى شوارع العاصمة . ديمقراطية فى مجتمع أغلبيته لا تقرأ ولا تكتب ، ولا يهمها شىء فى الحياة إلا لقمة العيال وكسوتهم . ولا يشغل نفسه بمن يحكم ومن يعارض . المهم عنده الرغيف بكام واللحمة بكام والشقة بكام ، وهل يجد عملا أم يحترف

الصياعة والنوم على الرصيف !؟

قلنا للبنت الخواجاية المخبولة :

ولكن موقفنا في الحرب العالمية الثانية كان إلى صف الديمقراطية وضد الفاشية . ضحكت البنت الغلباوية وقالت : وما شأنكم أنتم بكل هذه الأشياء ؟. أنتم لم تجربوا الديمقراطية ولم تعانوا من الفاشية . قد يكون الإنجليزى له مصلحة فى الحرب ضد الفاشية ومعه الفرنساوى والأمريكى وبعض دول أوروبا .. ولكن ما شأنكم أنتم بهذه القضية ؟ هل كنتم تمارسون الديمقراطية فى بلادكم وخفتم عليها من الضياع ؟ هل نالكم من وحشية الفاشية جانب ، كانت النازية فى ألمانيا « سمن على عسل » معكم ، وكانت الفاشية الإيطالية لها أعوان فى القصور الملكية فى بعض عواصمكم . ولو انتصر النازى فى الحرب لخلصوكم من جميع المشكلات التى تحيط بكم وتقيدكم وتشل أيديكم وتعرقل خطواتكم . عندما وصلت طلائع الجيش الألمانى إلى العلمين ، هاجر اليهود الأثرياء من فلسطين وذهب أغلبهم إلى أوروبا وبعضهم اتجه إلى إفريقيا . وفى الحروب عادة يقف الإنسان فى الخندق الذى يحمى مصالحه ، ولم نسمع عبر التاريخ كله أن إنسانا لجأ للاحتماء فى خندق أعدائه ، ولكنكم فعلتم ذلك وهو دليل آخر وعلامة على أنكم من بنى حمير . قلنا للست الخواجاية التى أثبتت أنها حميرية من أصلاب حميرية .. لقد قررنا مساعدة الحلفاء فى حربهم المجنونة على أمل أن يحفظوا جميلنا فيردوا إلينا استقلالنا فننهض لنعيد أمجادنا العربية .

ردت علينا .. يا خيبتكم التى لم يرد لها مثيل فى أى عصر . شأنكم شأن السجين الذى قرر أن يبالغ فى خضوعه لسجانه عساه يعفو عنه ويرق قلبه له ويطلق سراحه . ولكن مثل هذا السلوك يجعل

السجان يتجبر أكثر فيزداد صلفا وغلظة . وهو الأمر الذى حدث لكم تماما . عقب النصر الذى رقصتم فى عيده ، أطلق الإنجليز النار على أهل المصب فى الميدان الكبير .. فقتلوا العشرات . وعندما هب أهل الممر يقاومون عساكر الاحتلال ببنادق قديمة سحقوا مبنى المحافظة بالدبابات وهدموا مبانيها بمدافع الميدان وقتلوا مائة شاب مجند ودفنوهم تحت أنقاض المحافظة . وفى بلد الشهداء قتل الفرنسيون عدة آلاف فى ساعة واحدة ، حصدوهم برصاص المدافع ، ثم واصلوا قتال الشعب الشهيد لمدة ثمانى سنوات وبشراسة لم تكن طابع الفرنسيين فى أثناء حربهم مع عساكر المحور . الشىء نفسه حدث فى بلاد الشام وفى بلاد المغاربة لدرجة أنهم عزلوا الملك وأجلسوا على عرشه أحد الخونة . ولم يخرجوا قبل نصب الفخاخ على الساحل وفى الصحراء .. سبته ومليلة على البحر وجمهورية الأشاوس فى الرمال !

ولم يخرج هؤلاء (الحلفاء) من كل مكان إلا بشروط . وعندما أرادت دولة المصب أن تمارس استقلالها وسيادتها على الأرض وأممت الممر عاد (الحلفاء) بربطة المعلم وهبطوا على أرضها بالبراشوت بعد أن حطموا الموانىء ودفنوا أهلها تحت الأنقاض ، ولم يأتوا وحدهم ولكنهم اصطحبوا معهم (حليفا) جديدا هو جيش إسرائيل .

قلنا للخواجاية .. ولكننا لم نستسلم ، قاومناهم بشراسة ورددناهم على أعقابهم وخرجوا من بلادنا بعد أن صفعناهم على قفاهم .

قالت البنت وهى تضحك .. ما كان أغناكم عن هذا كله لو نصرتم الألمان عليهم . ولكنكم فعلتم العكس ، بالرغم من أنهم حلفاء عدوكم ،

فقد كانت الوكالة اليهودية إحدى مؤسساتهم وكان بن جوريون أحد مستشاريهم وكان موشى ديان الأعور أحد عساكرهم ، وكانت الفرقة اليهودية تحارب معهم فى معركة العلمين .

قلنا للخواجاية . على كل حال لم تكن هذه غلطتنا ، ولكنها غلطة الذين كانوا يحترفون السياسة ويمارسون الحكم فى بلادنا . والفرق كان واضحا بينهم وبين صنف اليهود . كانوا أوسع حيلة منا وأشد خبثا وأكثر ثراء . وكانوا يسيطرون على الإذاعات وعلى الصحف وعلى إدارات البنوك والبورصات . وارحمينا يا خواجاية ولا تتعسفى معنا ، ففي السياسة لم يكن أمرنا بيدنا ، كان الأمر في يد أحزاب عميلة وأحزاب حسنة النية . ولم نكن نعرف شيئا عن أمر الخفايا أو الخبايا . فلا تؤاخذينا بما فعل الطيبون والسفهاء منا ، وأعلمى أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها . وأغلب قرانا لم يكن بها جهاز راديو واحد ولا جهاز تليفون واحد . وأغلب القرى لم تدخلها نسخة واحدة من جريدة وكان إذا تمكن فرد واحد فى القرية من فك الخط هجرها بسرعة وغاب في المدينة . كان الريف كله مصنعا كبيرا لانتاج الصبر ، وكانت المدينة منقسمة إلى قسمين : قسم موظفين وقسم متشردين . وكان هدف التعليم تخريج أجيال جديدة من المستوظفين ، وكان الجهل العام هو المخزن الذى يمد الحكومة بعساكر الشرطة والمخبرين . ولكن استطعنا بالرغم من ذلك أن نطور أحوالنا ونفك أسرنا ، وتمكنت بعض أجزائنا من التحليق في الفضاء على قدر قوة اجنحتنا ، ولكن الشيء الأكيد هو أننا اختلفنا وتغيرنا . وأصبحت لنا صناعات لا بأس بها ، وعلاقات بدول العالم لا غبار عليها .

قالت البنت الخواجاية : هذا الكلام بعضه صحيح وبعضه مجرد كلام . انظر إلى الجزء الإفريقى من بلادكم ، غابات ما أغناها وأنهار

ما أحلاها ومزارع ومنافع ومساحة ربما أعرض من أوروبا كلها حالها أيام الاستعمار أفضل بكثير من حالها فى ظل الحكم الوطنى ، حكمتموها فقتلتموها وتوليتم أمرها فانكسر ظهرها ، وأهلها الآن مشردون فى كل مكان ، وأولياء أمورها يرفعون شعار العودة إلى أيام السلف الصالح . ولكن واقع الحال يقول : لا هى عادت إلى أيام السلف الصالح ، ولا هى تقدمت إلى الأمام ولا هى وقفت مكانها ، ولكنها تترنح الآن كالسكران ، وتقفز كالمنبت : لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . انظر مثلا إلى أرض الشهداء ، الناس هناك تترحم على أيام الحكم الفرنساوى . من أجل الاستقلال قدم الشعب فردا من كل عشرة أفراد شهيدا فى معركة الاستقلال . وشهد الناس فترة حلوة وعهدا جميلا ولكن ذلك لم يستمر طويلا . ونشبت الحرب من جديد بين السلطة الوطنية والوطنيين . ويسقط الآن أكثر من وطنى من بين كل عشرة وطنيين .. شعب وعسكر . ويذبح أطفال ونساء وشيوخ بسكاكين باردة دون أن يتمكن أحد من تحديد المسئول .

وفى الشرق تم تدمير البوابة الشرقية ، وربما لحق التدمير بأجيال كثيرة قادمة ، وربما لا تتمكن البوابة الشرقية من النهوض على أقدامها مرة أخرى . والغريب أن هذا التدمير تم بمساعدتكم وبفلوسكم وعلى مشهد منكم .

ولكن يا خواجاية .. أهل البوابة الشرقية هم الذين ارتكبوا الجناية وهم الذين بفعلتهم المهببة دمروا أنفسهم بأيديهم . قالت الخواجاية : هذا صحيح ، ولكن جريمتهم هى نتيجة خيبتكم جميعا . لو كان بنو حمير أمه واحدة ومصلحة واحدة ما وقع مثل هذا الخطأ الكبير . ولكن كل مجموعة حميرية استقلت بأمرها واهتمت بمصالحها . المهم ماذا يكسب هو ، وليس مهما : ماذا يخسر الآخرون . هل رأيتم وزير

شنقيط الذى وصل إلى تل أبيب لتهنئة نيتانياهو بالتوقيع على اتفاقية (واى) مع أنه لو انتظر عشرة أيام فقط لاكتشف أن نيتانياهو لم ينفذ شيئا من الاتفاقية التى وقعها وليس فى نيته تنفيذها فى أى وقت . والأعجب والأغرب أن وزير شنقيط كوفىء على زيارته السعيدة فصار رئيسا للوزراء ! كل منكم يلعب لحسابه مثل المغامرين فى حلبات السباق . كل يسعى إلى تحقيق الربح لنفسه حتى لو أصيبت بيوت الآخرين بالخراب .

ثم سكتت البنت الخواجاية وقالت : ويلكم يا معشر بنى حمير ، أصبتمونى بالإعياء وأكاد أوشك على الإغماء لا أكلا أكلنا ولا نقطة ماء شربنا ولا فنجان قهوة احتسينا . ما الذى جرى لكم يا بنى حمير ؟ كان أجدادكم مثالا يحتذى فى الكرم ، وأنتم الآن كرمكم كلام فى كلام . حتى اليهود الذين هم نموذج للبخل والشح والحرص والإمساك ، حتى هؤلاء اليهود نشاهدهم فى التليفزيون فى أثناء اجتماع مجلس الوزراء والطاولة أمامهم مزدحمة بكل ألوان الطعام والشراب .

قلنا للبنت الخواجاية : « جبر يلمك » .. على رأى الصعايدة ، لسانك فرقلة وفمك ترللى وعملك أسود ، ونهار أبوك أزرق بإذن الله . تريدين منا أن نجتمع فى مجلس وزرائنا حول مائدة طعام ونتفرغ للمضغ والزلط والبلع . تريدين أن نقلب مجلس وزرائنا إلى مطعم . ردت البنت الخواجاية : وما المانع !؟ إن الحياة ليست كلها مناقشات ومداولات ، والدنيا ليست كلها عملا وتفكيرا وتدبيرا ، ولو كانت كذلك لاختار كثير من الناس أن يهجروها ويغادروها إلى العالم الآخر . الدنيا حظوظ ومزاجات على رأى الصعايدة عندكم . والرئيس الأمريكى مفروض عليه مغادرة العاصمة فى عطلة نهاية الأسبوع

لقضاء العطلة فى منتجع كامب ديفيد . ورئيس وزراء بريطانيا مستر بلير غادر لندن وقطع كل علاقة له بها وكان مع زوجته وأولاده لقضاء أسبوعين في منتجع إيطالى ، ولم يتصل خلال أسبوعين بمكتبه أو بأحد أصدقائه فى لندن . ولكن المسئولين عندكم يتباهون أحيانا بأنهم يعملون ليل نهار ، وأنهم لم يحصلوا على إجازة من العمل على مدى عدة سنوات طويلة . وهؤلاء ينسون أنه حتى السيارات الحديد ترتاح بين الحين والآخر في محطات البنزين لتزود بالوقود . والله جل جلاله خلق النوم لراحة عباده ، ولو أراد الله لخلق الإنسان متيقظا على الدوام ، ولكن النوم وُجد لتجديد النشاط ولإثراء الحياة نفسها . ومنح الأجسام قسطا من الراحة هو جزء من قانون الحياة . ولكنكم تتصورون أن الحياة كلها عمل ، وبعضكم يتصور أن الحياة كلها جهاد . مع أن سيدكم وقائدكم محمد بن عبد الله كان يحضكم دائما على أن تنالوا قسطكم من أطايب الطعام . ولكن يبدو لى الآن أن السر فى نكبتكم أنكم خالفتم تعاليمه وابتعدتم عن طريقه واتخذتم لأنفسكم طريقا عجبا ، دعونى أصفه بأنه أشبه بطريق الغراب . حيث كان يقلد مشية الطاووس ولكنه فشل ، وأراد العودة إلى مشيته ولكنه فشل ، فصار يمشي كما ترونه الآن . وأخيرا .. صدعتم دماغي وقلبتم مخي ووجعتم قلبى فدعونى وانصرفوا والصباح رباح !!



٣

أعلى مراحل الاستحمار!

وسكتت البنت الخواجاية ولزمنا الصمت أيضا .
وأخيرا قطعنا الصمت بسؤال للست إياها : هل انتهيت من سرد قائمة اتهامك لنا ؟ هل هذه كل بنود اتهاماتك لنا بأننا وجيلنا بالذات من بناة العصر الحميرى ؟

ضحكت البنت الخواجاية وقهقهت وقالت : إن ما واجهتكم به مجرد نقطة في بحر . إن قائمة الاتهامات أطول من القرن العشرين وأعرض من المحيط الأطلسي .

وإذا أنا حرصت على ذكر كل شيء يدل على حموريتكم ويؤكدها ، لاحتجت إلى قرن كامل من الزمان . ولكني أختار البنود التي تنطق بالصوت الحياني لتسمع العالم كله ، وتحيط البشر جميعا بأنكم أنتم الأصل في الحمورية وأن أسلافكم أبرياء منها قلنا : هات ما عندك ، قالت على الفور : خذ عندك .. كانت الامبراطورية الشيوعية هي القوة العظمى الثانية التي تناطح القوة العظمى الأخرى .. قوة الولايات المتحدة .. وكانت الشيوعية أيديولوجية تخالف معتقداتكم ، ولكنها كانت سترا وغطاء لكم .

عندما احتجتم مساعدة مالية أغدقت عليكم ، عندما طلبتم سلاحا أمدتكم بأحدث الأسلحة وأقواها . وقفت إلى جانبكم في معارك التحرير ، وحاربت معكم في بعض المعارك ، وكانت لسان حالكم في

المحافل الدولية . وفجأة .. اتفقتم واجتمعتم وتحالفتم - ونادرا ما تفعلون ذلك . وذهبتم بربطة المعلم إلى أفغانستان ، وحاربتم الامبراطورية الشيوعية حتى سقطت ، وعندما سقطت كان الذى سقط بالفعل هو أنتم ! أصبحتم بلا غطاء وبلا حماية . قاتلتم أعداء عدوكم ، ونصرتم أصدقاء أعدائكم . وكانت النتيجة كما هى الآن واضحة كالشمس . زاد عدد سكان إسرائيل بهجرة مليون يهودى روسى ، كان النظام الشيوعى يحاصرهم ويحدد إقامتهم ويمنعم من السفر . وتحولت روسيا من بلد موالية للعرب إلى دولة موالية لإسرائيل .. وبدلا من الشيوعيين حكمها اليهود ، وأعظم الشخصيات فى روسيا الآن يهودى رأسمالى يقال إن الحكومة كلها فى جيبه ، لدرجة أنه استطاع بإشارة من إصبعه الإطاحة برئيس الوزراء بريماكوف وجاء بوزير الداخلية محله ! وجميع عصابات المافيا فى روسيا من اليهود ، وهم يقومون بتهريب كل شىء من روسيا إلى إسرائيل ، كل شىء من الكافيار إلى اليورانيوم . وللعلم .. ظل اليهود ردحا من الزمان يحاولون إحداث شرخ فى جدار الاتحاد السوفيتى دون جدوى . ولكن أنتم بكرمكم وحسن ضيافتكم قمتم بهذه المهمة بالنيابة عنهم ولصالحهم . وكلنا نذكر أن الغيظ استبد بقلوب المسئولين فى تل أبيب بعد إغراق المدمرة إيلات . ويومها قال موشى ديان .. لقد أخطأنا عندما ترددنا فى تدمير قطع الأسطول المصرى الراسية فى كل من الاسكندرية وبورسعيد .. بعد هذا التصريح بيوم واحد لجأت قطع الأسطول العاملة فى البحر الأبيض إلى الدخول فى ميناء بورسعيد وميناء الاسكندرية . وعندما سأل صحفى غربى القائد الروسى .. عن احتمال قيام الطيران الإسرائيلى بضرب الأسطول الروسى ، قال القائد الروسى ، لو حدث شىء من هذا ، فلدى

الأسطول الروسي سلاح بإمكانه أن يجعل من إسرائيل مجرد ثقب في باطن الأرض ! ومع ذلك نسيتم هذا كله وذهبتم بربطة المعلم للإطاحة بالامبراطورية الشيوعية . قلنا للبنت الخواجاية نحن لم نذهب إلى افغانستان لنطيح بامبراطورية الروس ، ولكننا ذهبنا إلى هناك لوقف المد الشيوعي الذي كان يهدد ديننا إن الشيوعية دين ونحن لنا ديننا . وكانت حربنا دفاعا عن الدين الذي نؤمن به .

ضحكت البنت وقهقهت وتساءلت . وهل كان هناك خطر على دينكم من دين الشيوعية ؟

أجبناها : بالطبع ، كانت لدينا أحزاب شيوعية في بلادنا تنتهز أي فرصة للوثوب على السلطة وتنفيذ برامجها الهدامة . قالت البنت : وهل كانت في بلادكم أحزاب شيوعية بالفعل ، حقيقة الأمر . لم يكن عندكم شيء من هذا قط لم يكن عندكم إلا دوائر ديدانية كما وصفها القطب الشيوعي الكبير خالد بكداش . وكان الشيوعيون العرب من أفشل الجماعات التي اشتغلت بالسياسة في بلادكم . قدموا تضحيات غالية جدا ولم يحصلوا على أي شيء . الانقلاب الذي قاموا به في السودان لم يدم في السلطة إلا عدة أيام . وحوكم زعماؤهم محاكمة كوميدية وماتوا جميعا بالرصاص . ولم تحاول الإمبراطورية الروسية أن تتدخل لانقاذهم أو حمايتهم وفي العراق تم سحل الشيوعيين بلا رحمة ولم تتحرك الامبراطورية الشيوعية لحمايتهم . وفي الماضي احتلت انجلترا مصر لأن المصريين قتلوا حمارا مالطيا في الاسكندرية .. والشيوعيون المصريون لم يصبحوا وزراء إلا في عهد السادات الذي كان يكره الشيوعية كره العمى وكان في حالة سمن على عسل مع الاتحاد السوفيتي الذي أثبتت الأيام أنه كان أكثر سذاجة من الشيخ البهلول . كما أثبت السادات أنه كان

أكثر تجربة وأعمق معرفة بواقع الحال ، فلم يتردد في تعيين اثنين من كبار الشيوعيين في الوزارة . كان يدرك أنهم تنظيم من المثقفين هدفهم النقاش والحوار ، واللف والدوران حول نظريات مجردة ، وأن جذورهم مزروعة على سطح الأرض ولم تمتد إلى أي أعماق في أي اتجاه.

والدليل على ذلك أن السادات عندما حان الوقت ليكشف عن موقفه الحقيقي ، لم يتردد في طرد القوات الروسية من مصر ، ولم يتأخر الروس لحظة واحدة في الرحيل ، فرحلوا بربطة المعلم ، ثم لم يترددوا بعد ذلك في مده بكل طلباته من أصناف السلاح !

وكان الشيوعيون المحليون أكثر سذاجة من الاتحاد السوفيتي كانوا يتصورون أنهم وصلوا إلى السلطة عندما يوافق النظام على تعيين أحدهم في دار صحفية ، أو عندما يوافق النظام على ضم أحدهم إلى وفد رسمي مكلف بحضور مؤتمر في غانا . وعندما طلب عبد الناصر منهم حل الحزب الشيوعي والانضمام إلى التنظيم الطليعي فعلوا ذلك على الفور ، ووافق عبد الناصر بعد ذلك على ضم بعض عناصرهم للتنظيم الطليعي .

دولة مثل الاتحاد السوفيتي كان واجب العرب أن يصونوها بأعينهم ، ولكنهم ذهبوا لدفنها في جبال أفغانستان . وعندما تم لهم ما أرادوا ، اكتشفوا أنهم كالدبة التي قتلت صاحبها .

ولم يكن هذا الموقف هو آخر دليل على أنكم من بني حمير ، فالأدلة كثيرة ومتعددة ، فبالرغم من معرفتكم بحقيقة نوايا الأمريكان وحقيقة مشاعرهم . نجد أنهم قبلوا وساطتهم بينهم وبين دولة اليهود ظنا منهم أن العدل يمكن أن ينبثق من بطن الظلم ، وأن الضحية يمكنها الحصول على حقوقها من الجاني ، وذهبوا تحت

مظلته إلى كامب دافيد ، ثم ذهبوا فى حمايته إلى مدريد ، وتوجهوا فى صحبته إلى أوسلو ، واجتمعوا تحت سقفه فى واى ريفر . ومع أن الأيام أثبتت أنهم خرجوا دائما بخفى حنين ، إلا أنهم لا يزالون يواصلون السير على نفس الطريق ، بينما الاتحاد السوفيتى الذى كان صديقا يحكمه ملياردير يهودى ، وأغلب دول ما كان يسمى بالستار الحديدى أصبحت أعضاء فى حلف الأطلسى . ولا أحد يعرف إلى أين ، وأفضل تشخيص للحال الذى انتم فيه هو الوصف الذى أطلقه المفكر الحكيم أحمد بهاء الدين الذى قال ذات يوم .. إن الأمة العربية أشبه بركاب طائرة مخطوفة ، لا أحد يعرف إلى أين ، ولا إلى متى تستمر المحنة ، ولا كيف يتم زوالها ؟ وهو وصف دقيق جدا لواقع الحال الآن ، ويمكن أن يحدث أى شىء ، يفجر الخاطفون الطائرة ، أو تجتاحها قوات مكافحة الإرهاب ، أو يتخلص خاطفو الطائرة من ركابها واحدا بعد الآخر ، وأيا كانت النتيجة فأنتم المسئولون عن المحنة التى أنتم فيها ، أنتم الذين ركبتم الطائرة ، وأنتم الذين سلمتم الخاطفين ، وأنتم الذين وفرتم لهم الطعام والشراب ، وتفرغ البعض منكم لخدمتهم ، وأكثر من ذلك توليتم حراستهم أثناء نومهم ، ولم يعرف التاريخ كله أمة فعلت فعلتكم أو سلكت دربكم ، حتى الهنود الحمر كان سيختلف مصيرهم لو وجدوا نصيرا لهم كالاتحاد السوفيتى ، ولكن حظهم النحس أن مأساتهم حدثت فى زمن أغبر ، وفى ظرف أسود ، واجهوا مصيرهم وحدهم ، لا يد أمتدت إليهم ، ولا حتى كلمة عزاء من أى جهة فى العالم . ومع ذلك استطاعوا قبل النهاية توحيد صفوفهم ، وتوحيد قيادتهم وخاضوا معركتهم الأخيرة ضد الرجل الأبيض بقيادة الثور الجالس - وسجلوا نصرا فى معركة نهر البرعم ، ولا يزال هذا اليوم يوم حداد فى

الولايات المتحدة ، يوقدون فيه الشموع ويذرفون الدموع بالرغم من انتصاراتهم فى العراق وفى البلقان وقبل ذلك فى ليبيا وفى بنما .

قلنا للبنت الخواجاية : الله يخرب بيتك حيزبونة حاقدة ومجنونة . لقد كنا في حالة دفاع عن استقلالنا وعن عقيدتنا . وصحيح أنهم ساعدونا ، ونحن أيضا ساعدناهم ، كسرنا عزلتهم وأحدثنا شرخا في الستار الحديدى الذى فرضوه عليهم . وكنا مدخلهم إلى أفريقيا وإلى دول العالم الثالث ، واعترفوا هم أنفسهم بذلك عندما وصف الرئيس السوفيتى جمال عبد الناصر بالصديق العظيم وعندما قلدوه أرفع وسام فى الاتحاد السوفيتى وعندما أقاموا له السد العالى .

قالت البنت الخواجاية : هذا السد العالي كان يجب أن يعلمكم ضرورة الحرص على الاتحاد السوفيتى . ليس لأنهم شيدوه لكم ، فأى دولة من إياهم كان يمكنها تشييده ، ما دامت تملك الخبرة والفلوس ولكن الذى حدث مع السوفييت كان شيئا مختلفا .

فى الوقت نفسه الذى شيدوا فيه السد العالى ، كان يوجد على مسافة مئات الكيلومترات وداخل الصحراء عدة مئات من الشيوعيين المتهمين بالعمالة للاتحاد السوفيتى .. رهن الاعتقال ، ولم تقصر السلطة فى معاملتهم المعاملة نفسها التى تعامل بها عتاة المجرمين . تعذيب وضرب وتجويع وأشغال شاقة فى الرمال المحرقة وسط أسراب العقارب وجحور الثعابين . وطبعا لم يكن ما يجرى فى الصحراء خافيا على الاتحاد السوفيتى ، وبالرغم من ذلك لم تصدر كلمة احتجاج واحدة من موسكو ، ولم يهدد مسئول روسى واحد بوقف العمل فى السد العالى ، بل واصلوا العمل فى همة وفى نشاط وانجزوه قبل الميعاد . بينما حدث العكس على الجانب الآخر . سحبت الولايات المتحدة عرضها ببناء السد العالى لمجرد شكها فى نوايا

عبد الناصر ، مجرد الشك جعلها تسحب العرض ، فهى لا تبنى إلا لمن يثبت أنه عميل أو على الأقل لديه استعداد للقيام بهذا الدور . وبريطانيا العظمى لأن بعض عساكر الشرطة قاوموها ببنادق بريطانية قديمة ، هدمت محافظة الإسماعيلية بالدبابات وسحقت مئات من العساكر تحت جنازير الدبابات ، وفى اليوم التالى أشعلت النار فى عاصمة البلاد وقتلت عدة مئات تحت الانقاض .

وأقول لكم يا معشر بنى حمير ، لم يكن للشيوعيين العرب أى خطر ، ولم يكن لهم أى تأثير فى صفوف الشعب . وحدث ذات مرة فى عام ١٩٦٢ حادث فريد كان يمكن أن تستخلصوا منه الدرس والعبرة ، وقف رئيس تنظيم شيوعى من إياههم أمام المحكمة العسكرية ، وكانت التهمة الموجهة إليه قيادة حزب شيوعى هدفه نشر المبادىء الهدامة فى مصر ، والركوب على السلطة لفرض المعتقدات الشيوعية . ووقف محامى المتهم أمام هيئة المحاكم وقال بثقة شديدة.. ما دامت هذه هى التهمة الموجهة لموكلى فهو برىء بكل تأكيد إنكم تتهمونه بالعمل على نشر المبادىء الهدامة وفرض المعتقدات الشيوعية. فهل ألقت الشرطة القبض على فرد واحد من سكان العمارة التى يقطنها المتهم يعتنق المبادىء الشيوعية ؟ هل يوجد بين المتهمين فى هذه القضية أو فى أى قضية أخرى أحد من سكان الشارع الذى يسكن فيه المتهم بنشر المبادىء الشيوعية ؟ هل يوجد أحد من الشيوعيين فى الحى الذى يقيم فيه المتهم ؟ الحقيقة يا حضرات القضاة المحترمين أن المتهم برىء من التهمة ، لأنه لو كان يقوم بنشر المبادىء الشيوعية لنشرها أولا بين سكان عمارته ، ثم سكان شارعه ثم سكان الحى الذى يقيم فيه . ولكن عدم وجود شيوعى واحد فى أنحاء الدائرة التى يقيم فيها . دليل على أنه برىء

بالتأكيد من هذه التهمة . وقد اقتنعت المحكمة العسكرية بدفاع المتهم وحكمت بالبراءة . ومع ذلك كانت مقاومتكم للتنظيمات الشيوعية حاسمة لدرجة أنكم نجحتم في استئصال شأفتها . ولما تم لكم ذلك حدثت الكارثة . انفتح المجال أمام التنظيمات إياها ، تنظيمات الجنزير والخنجر المسموم والأساحة الأتوماتيكية ، تنظيمات يؤمن أفرادها بأن كل مخالف لرأيهم كافر يحل قتله ، وكل مواطن لا يعلن ولاءه للأمير ، وأحيانا يكون الأمير من الجهلاء والصيا ع فهو مرتد قتله حلال واستئصاله من الحياة واجب شرعي وكانت هذه الغلطة دليلا آخر على أنكم من بني حمير . وأسفة لإضافة كلمة بني ، لأن آباءكم وأجدادكم كانوا بشرا من صنف فاخر كان من بينهم رجل واحد استطاع بسيف عادي يستعمله كل المحاربين أن يقضي على إمبراطوريتين كبيرتين ، امبراطورية الفرس وامبراطورية الروم ، هذا الرجل هو خالد بن الوليد . هذا الرجل الذي لم يكن اسمه يسبقه رتبة الجنرال أو المارشال ، لا تزال نظرياته الحربية يجري تدريسها في أرقى معاهد العالم العسكرية

ومن بين أجدادكم كان هناك شابان نجحا معا في وقف الحملات الصليبية على العالم العربي ، عندما هزما الجيش الفرنسي . وأسرا ملك فرنسا نفسه ، ولم يخرج من سجنه إلا بعد أن دفع الفدية وهو صاغر . ثم نجح نفس الشابين في استئصال شأفة التتار ، حيث أكلوهم حتى العظام في موقعة عين جالوت .. قطز والظاهر بيبرس ، فهل يوجد أحد بينكم الآن ترتفع قامته إلى قامة هذين البطلين . عندما نطلق عليكم لقب بني حمير فنحن في الواقع نظلم الأسلاف والأجداد لأنهم حتى في عصور انحطاطهم كانوا يتصرفون كأنهم بلد واحد فالحدود مفتوحة والتجارة حرة بين المناطق المختلفة ، والسفر مباح

بين سكان المغرب العربى والمشرق العربى . انظر حولك الآن ، لا لترى حسنين ومحمدين ، لكن انظر حولك لترى الخيبة التى هى بالويبة . هل يستطيع مواطن شامى أن يدخل الخليج بدون تصريح وبدون تفتيش ؟ هل بإمكان مصرى الحصول على جنسية الكويت حتى لو عاش على أرضها لمدة قرن كامل من الزمان ؟ هل يمكن تبادل الزيارات بين المغرب والجزائر ؟ أليس غريبا أن يكون اللبنانى منتشرا فى كل أرجاء أفريقيا من مالى وإلى سيراليون ، ومن كانو إلى أديس أبابا ، ولكنه لا وجود له فى السودان . إن أحد العباقرة العرب يحمل جنسية خليجية ، طالب ذات يوم بعدم جدوى تدريس تاريخ مصر وسوريا والعراق والجزائر لطلاب المدارس فى قطر ، وطالب بأن يكون التعليم مقصورا على تاريخ قطر المجيد ، على أساس أن جحا أولى بلحم توره . وفى بلد متحضر كمصر قانون يمنع منح الجنسية لأبناء المصرية المتزوجة من عربى ، بينما يسمح بإعطاء الجنسية لأبناء المصرى المتزوج من إسرائيلية بينما فى إسرائيل ، لا يعتبر اليهودى يهوديا إلا إذا كانت أمه يهودية .

ألا ترون معى يا بنى حمير ، أن وصفكم ببنى حمير هو ظلم لأسلافكم العظام ، بينما أنتم الذين أسستم النظرية الحميرية ، ووضعتم لها القواعد والشرائع وأصول التطبيق وعلى كل حال .. لقد سئمت من تكرار الحوار معكم من سخافته أيضا ، فلنكف الآن عن الثرثرة لكى نأخذ قسطا من الراحة والصباح رباح !



٤

آه من الجزيرة!

قالت البنت الخواجاية ساخرة وناخرة أيضا :

الغريب أيها السادة من بني حمير أنكم من سلالة أبطال عظماء تركوا أثرا لا يمحى على مر الزمن ، ففى فن الحرب أستطيع أن أذكر لكم أكثر من مائة اسم نظرياتهم الحربية لا تزال تدرس فى المعاهد العسكرية ، ومن أول خالد بن الوليد إلى إبراهيم باشا أبو إصبع . فى العلوم عندكم مهندسون مثل الحسن بن الهيثم ، فى العلوم الاجتماعية كان لديكم رجل صايع هو ابن خلدون وهو من عائلة عبد الرحمن الخميسى وزكريا الحجاوى ، نظرياته لا تزال هى العمدة فى علم الاجتماع فى كل أنحاء العالم . فى علوم اللغة لا يزال ابن منظور المصرى هو الأسطى وهو الأستاذ . ولو أردتم أمثله فى كل ناحية من نواحى الحياة لا حتجت إلى قضاء العمر كله في سرد الأسماء ، وقد ينقضى العمر قبل أن ينتهى كشف الأسماء .

فى المقابل .. خذ عندك علامات الحمورية التى أصبحت صفة لكم وعلامة عليكم فى هذا الزمان . منذ حوالى ربع قرن ذهبت مجموعة من الكوماندوز اليهود إلى مدينة بيروت وقتلوا ثلاثة من زعماء المقاومة الفلسطينية . مسألة تحدث أحيانا وليس فيها جديد ، ولكن الجديد فى حكايتنا أن الزعماء الثلاثة الذين يقودون الكفاح الفلسطينى ، اختاروا

المكان الذى يسكنون فيه فى عمارة فاخرة على شاطىء البحر فى بيروت : هل هذا معقول ؟ مناضل يقود المقاومة ضد أحقر أمة عرفها صنف البشر ، المفروض أن يقيم فى خندق ، أو على الأقل فى حى شعبى مزدحم بالناس كحى المصيطبة الشعبى أو كورنيش المزرعة ، ولكن الذى لا يمكن فهمه هو اختيار المناضل لعمارة فاخرة على شاطىء البحر وبينه وبين دولة إسرائيل السكة سالكة والطريق ممهد والمسافة بينهما فركة كعب لا تزيد ، يعنى نضال ومتعة ؟! مش ممكن مقاومة ومستوى فاخر من الحياة ؟! مش معقول . ولكن فى قبائل بنى حمير .. كل شىء ممكن ، وكل شىء معقول !! خذ عندك مثلا آخر : رجل دين متحمس يسكن قرية على حدود إسرائيل يخطب كل يوم فى جموع الناس ، كل خطبة تلف وتدور حول إبادة إسرائيل وتدمير إسرائيل والقضاء على جنس بنى إسرائيل . وبعد كل يوم حافل من الخطب العصماء يذهب إلى سريره وينام بعد أن يسدل الستارة الزرقاء ليحمى نفسه من جيش البعوض ، وذات مساء بعد يوم حافل بالخطب النارية حطت طائرة إسرائيلية فى الساحة الممتدة أمام بيت الشيخ ، وحملوا الشيخ المتحمس معهم ونقلوه فى الهليوكوبتر إلى داخل إسرائيل . ولا يزال هناك منذ عشر سنوات فى محبسه الإسرائيلى ، والغريب أنه يؤدى صلواته كل يوم ويخطب أحيانا عقب الصلاة ! هل هناك حمورية أكثر من هذه الحمورية ؟! خطيب متحمس ينادى فى كل خطبه بإزالة إسرائيل وتدمير إسرائيل ، ثم يلجأ كل ليلة إلى سريره ويسدل الناموسية ويحلم أحلاما وردية بينما أنوار القرى الإسرائيلية تتلألأ أمام عينيه ؟! هل هناك عبط مثل هذا العبط ؟! رجل يصرخ كل يوم مهددا بإبادة إسرائيل ، الأمر الطبيعى أن تقوم إسرائيل بإبادته أولا ، خصوصا أن المسافة بينه وبين إسرائيل

لا تزيد على مرمى حجر .. يمكن لرجل متحمس أن يصرخ بكل قوته مهددا بإزالة إسرائيل ، ولكن في حالة واحدة فقط أن يكون منزله في القاهرة أو في دمشق .. هل تريد أمثلة أخرى ؟! خذ عندك النظام البعثي العراقي قام في الأساس على قاعدة اشتراكية صلبة ، وأحاط طبقة العمال بقوانين لا تخر الميه ، ثم انتهى آخر الأمر إلى نظام رأسمالي عضوض أبشع من أي نظام رأسمالي حتى في الولايات المتحدة ! لأن الرأسمالية هناك لها حدود ولها قواعد . أما في بغداد فكل شيء وارد وكل شيء مباح ! والآن .. رغم المحنة والكارثة وموت الأطفال بالجملة ونقص الدواء والغذاء ، هناك في بغداد مليونيرات ولا محمد الفايد ، وزعماء عصابات ولا السنيور كاليوني ! نرجع قليلا إلى الوراء ، في عام ١٩٤٨ عندما احتدمت الحرب بين جيوش العرب وجيش إسرائيل ، وعندما أصبح الجيش المصري على مشارف تل أبيب ، في تلك اللحظة بالذات أصدر الملك عبد الله - يرحمه الله - أمرا إلى الجيش الأردني بالانسحاب ، وانكشف ظهر الجيش المصري وتم الالتفاف حوله .. وحدثت المأساة ! وبالنسبة لمصر نفسها .. حدث عند دخول جيش مصر إلى أرض فلسطين أن قائد الجيش المصري كان مديرا لمصلحة السجون .. سجان يقود الجيش بينما كان في صفوف الجيش المصري عشرات ومئات من القادة العظام ! ما الذي أجبر الملك فاروق على وضع سجان على رأس قواته المسلحة ؟! لأن أمن الملك كان أهم من حربه . الأمن أولا ثم أي شيء بعد ذلك . انظر إلى نظم الحكم في العالم الحميري ، ستجدها كلها الخالق الناطق ، كل حكام العالم موظفون يتقاضون مرتبات وتجري محاكمتهم إذا ارتكبوا مصائب ويجري فصلهم إذا لزم الأمر . ولكن حكام العالم الحميري هم أصحاب الدكان . إذا اختلف مواطن معه فمصيره النفي في

الأرض أو السجن إلى أن يموت .. وكل حاكم فى العالم الحميرى حر ، يتجه يمينا يتجه يسارا ، يعتنق الشيوعية ، يعتنق الرأسمالية .. دكانه وهو حر فى دكانه ! خذ عندك بلد عربى مجاور لتونس ، ظلت أجهزة إعلامه تعوى صباح مساء وتصرخ بالعروبة ، وآه يا عرب ويا عربى يا شلبى ، يا عروبة يا أروبه ، والعرب همه العرب ، وأمجاد يا عرب أمجاد ، وحنا للسيف حنا للضيف .. ثم .. بعد ثلاثين عاما طويلة ، تغيرت النغمة وأجهزة إعلام البلد نفسه تصرخ الآن صباح مساء وبلا انقطاع : أفريقى أفريقى أفريقى ، هوه حبيبى وصديقى ، هوه أخى وشقيقى .. إيش جاب لجاب ، أنت عربى أو أفريقى ؟ والأفريقى ده حتتكلم معاه إزاى ؟ حتتفاهم معاه ازاى ؟ هتفرض اللغة السواحيلية على الشعب كله ؟ هل ستلحق الشعب كله بقبائل الهوتو والتوتسى ؟ هل أصبح كابيلا صديقك وحبيبك ؟ وهل بوكاسا هو أخوك وشقيقك ؟ هل سألوا الشعب فى نوع الهوية التى يرضاها لنفسه ؟ أم يكفى سؤال صاحب الدكان ، وهو الوحيد الذى له حق الاختيار ؟

من أبرز حكام بنى حمير واحد اسمه كالنمر ، بدأ ديمقراطيا ولا تشرشل ، ثم دكتاتورا ولا موسولينى ، ثم إسلاميا ولا الخمينى ، وفى كل الأحوال كان قاتلا ولا ريا وسكينة ! وبعد عشرين سنة أو نحو ذلك ، عاد مرة أخرى إلى بلاده وكأن شيئا لم يكن ، وبراءة الخلفاء الراشدين فى عينيه ! ما الذى دفعه إلى العودة وحرضه عليها ؟ إنه هاجس العودة إلى السلطة ؟ لأن للسلطة فى بنى حمير مذاقا يختلف عن مذاقها فى أى مكان . السلطة عند بنى حمير فخفخة ومنظره ويغدده وملذنه ومعززة . وليست هذه الصفات حكرا على القمة فقط ، إنها على جميع المستويات . انظر حولك ستجد كل رئيس هو صاحب

القرار وهو صاحب العقل المفكر وصاحب النظرة التي لا تخيب .. مدير الأمن مثلا هو الذي رسم الخطط وهو الذي وزع الأكمنة ، وهو الذي اختار فريق البحث ، وهو الذي قبض على المجرم الخطير ، ووضعه بيده خلف الأسوار ! فكروا كثيرا في التغيير الكبير الذي حدث بين أشاوس زمان وحمير هذه الأيام . زمان كانت القبائل تتنادى للحرب لحظة نشوب القتال . وكانت القبائل - حتى التي تعيش في أعماق الصحراء - تهرع لنجدة القبيلة التي أطلقت نداء الاستغاثة ، وكانت تقتحم نار الحرب وتدفع الثمن باهظا بالرغم من عدم وجود ناقة لها ولا جمل في الحرب .. ولكنها النخوة والشهامة ونجدة الملهوف ونصرة المظلوم .. قارن ذلك الموقف بما يحدث اليوم .. قبيلة من بني حمير محاصرة بالأعداء ومضروبة بالحذاء وتعاني الجوع والمرض ويتساقط أطفالها من سوء التغذية والهزال . في الوقت نفسه تشارك بقية القبائل في حصارها ، لا أحد يمد يده إليها أو يحاول دعمها ، وأكثر من ذلك تشترك القبائل الأخرى في توجيه اللوم إلى القبيلة المحاصرة وإلقاء المسئولية عليها في المصير السيىء الذي انتهت إليه قبيلة أخرى من بني حمير اتهمت بأنها كانت الجهة المدبرة لإسقاط طائرة كان يستقلها عدد من رجال المخابرات الأمريكية . وسواء كان الاتهام حقيقيا أم باطلا إلا أنه مجرد اتهام . وصدر قرار بفرض الحصار على القبيلة إياها ، وبادرت القبائل الأخرى بحصار القبيلة وظلت متمسكة بالحصار حتى آخر لحظة . فقد الحمير إحساسهم بصلة الدم واللغة والدين ، وتحولت كل قبيلة إلى شيء منفصل وتحولوا جميعا إلى « روبوتات » تحركها أزرار وتتحكم فيهم من بعد . لم يعودوا يملكون قرارهم ولا يتحكمون في حركتهم قبيلة من بني حمير تقاطع كل الدورات والمؤتمرات والاجتماعات التي

تشارك فيها قبيلة أخرى .. ليه ؟ لأن لها أسرى تحتجزهم القبيلة المعتدية . أبعد عشر سنوات من القتال لا تزال القبيلة تحتجز أسرى للقبيلة الأخرى ؟ الجواب يأتيك : نعم . طيب يحتجزونهم ليه ؟ هل فيهم علماء ذرة ؟ هل منهم خبراء في فنون الحرب والقتال ؟ الجواب بالنفي ، طيب وإيه سبب الاحتجاز ؟ والقبيلة المتهمة باحتجاز الأسرى تتضور جوعا . فهل احتجزوهم ليشاركوهم الطعام ؟! كلام لا يدخل العقل ولكنه منطق الخلاف والشقاق والقطيعة . فليس من مصلحة الأعداء اتحاد القبائل ، لأن اتحادهم خطر عليهم . انظر إلى حروب بني حمير مع الأعداء .. يشترك في القتال الحمير المجاورة والحمير المتاخمة ، ولكن الحمير البعيدة تقف عن بعد وتشاهد وتبدى شماتتها إذا انتهت الحرب بهزيمة الحمير .. هل شاهدت قطيعا من الحمير الوحشية داخل الغابة ؟ إنها حمير قوية ، ويستطيع حماران منها لو تعاونا أن يقتلا أسدا هصورا ، ولكن الذي يحدث أن الأسد يهاجم القطيع فتفر جميع الحمير تسابق الريح وينقض الأسد على الحمار الذي وقع اختياره عليه ، وبضربة واحدة من مخالبه يبقر بطنه ويلتهم أمعاءه . في تلك اللحظة تتوقف الحمير كلها وتقف على مقربة من المشهد تتفرج وتحمد الظروف الحسنة لأنها نجت من هذا المصير . مع أنها لو هاجمت كلها هجمة رجل واحد على قطيع الأسود لأهلكتها ! دعك من علاقة القبائل بعضها ببعض . انظر إلى العلاقة بين أفراد القبيلة الواحدة . الموظف هو سيد الناس مع أنه في كل أنحاء العالم هو خادم الناس . والحكومة هي الراعي والناس في حكم الرعية . والغني يعطي فيزداد أما الفقير فيلعن أبو الذين نسلوه . وكل مواطن وحظه . يسكن في مقبرة . هذا قدره ، يسكن في جنة ولا جنة بيفرلي هيلز في هوليوود .. هذا حظه . يتسول طعامه .. هذا حكم

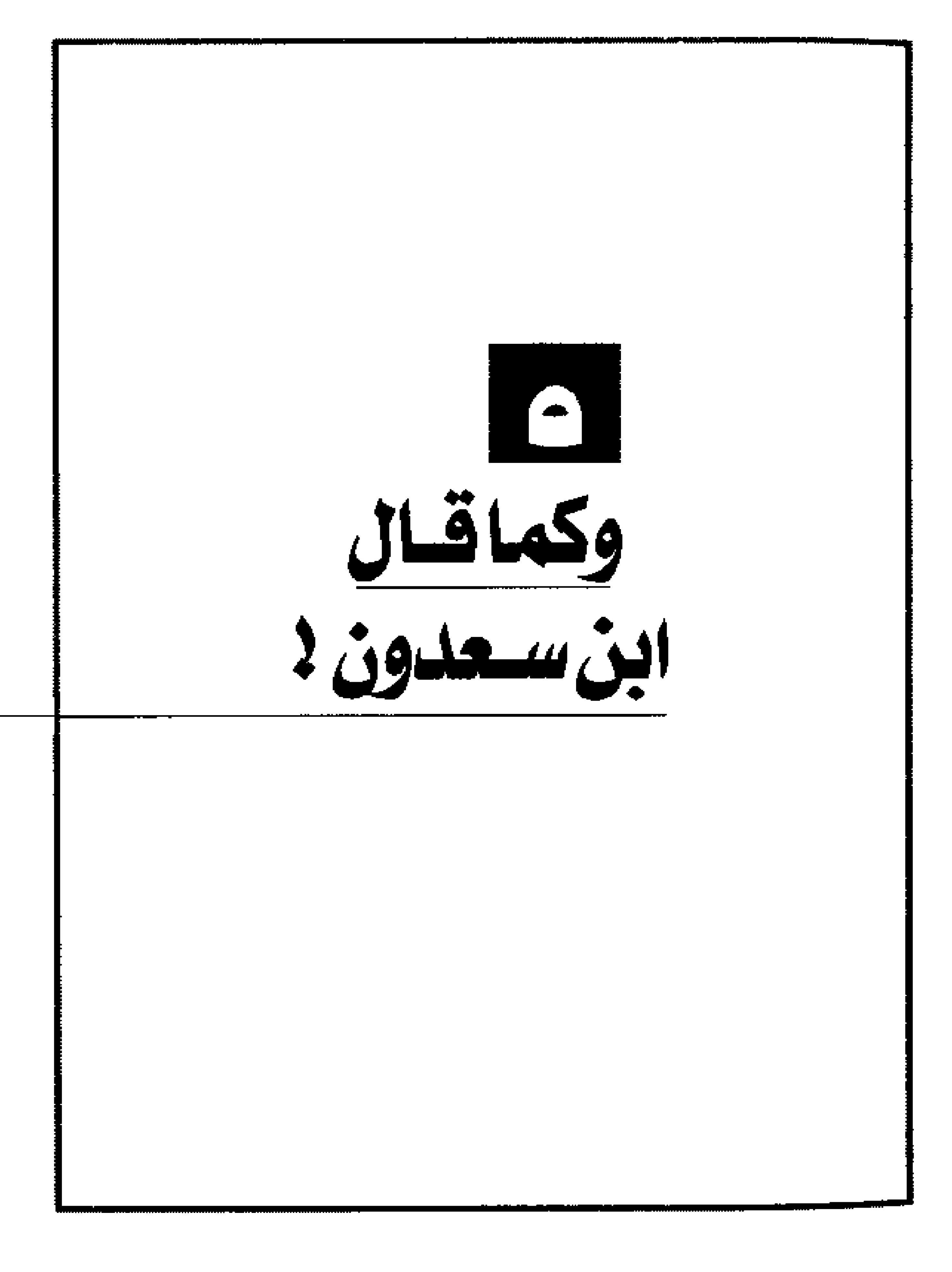
السماء . يهبر الملايين من البنوك بدون ضمانات .. يعز من يشاء ويذل من يشاء ! لا أحد يتذمر ، ولا أحد يشكو ، باعتبار أن أقدارنا بين السماء القاسية . يا نهر البنفسج .. على رأى شيخ الكتّاب الجوالين زكريا الحجاوى ! قلت للبنت الخواجاية : هل تعرفين زكريا الحجاوى؟! قالت : ونعم المعرفة . كأن يرحمه الله مشاء بقلم . حاول تفسير التاريخ بأهازيج السلف الصالح . وحاول ترسيخ قاعدة للمبادىء والقيم من خلال كيد النساء وصبر أيوب ، وكان جزاؤه فى النهاية أنهم فصلوه من عمله ، فلما انهار منزله رفضوا منحه مسكنا واضطر فى النهاية إلى الهجرة ، وعاش فى الدوحة وكانت النتيجة أنه داخ هناك السبع « دوحات » وقتلته الغربة فمات فى منفاه . وشعرت الحكومة بذنبها فأنشأت متحفا باسمه فى المطرية ، وافتتح رئيس الدولة المتحف ورئيس الوزراء وكان ضابط شرطة أيامها . وبعد أن انتهت الزيارة ، رموا المقتنيات فى مياه البحيرة وأعادوا السكان إلى المنزل الذى أنشأوا المتحف فيه . إنها حكاية تدل دلالة باهرة على جوهر الحياة التى يحياها الحمير ، فلا شىء جد ، ولا شىء حقيقى .. إنها مجرد مزيكا وهمبكة وسد خانة وحكاية مثل حكايات ستنا الغولة .

ولكنهم يا خواجاية يحتفلون بذكرى زكريا الحجاوى مرة كل عام فى التليفزيون . ضحكت البنت وقالت : إنه مجرد برنامج لمصلحة التليفزيون وليس لمصلحة زكريا . اجتماع يحضره عدد من هواة الشهرة وبرنامج لمدة نصف ساعة بالبلوشى . التليفزيون الحميرى يهوى مثل هذه البرامج لأنها بدون تكاليف . كل تليفزيونات العالم تدفع نقودا للمتحدثين فى برامجها إلا عندكم ، ولذلك يصنعون برامج كثيرة من هذا النوع ليس احتفالا بالرجال الذين يأتى ذكرهم فى

البرامج ، ولكن لأنها برامج ببلاش . والناس الذين يحتفلون بذكرى الفقيد المطلوب تكريمه غالبا لا يعرفونه ولم يلتقوا به . فليس مهما الحديث عن الفقيد ، ولكن المهم حشو البرنامج بأى كلام ، فأهم شيء في البرنامج أنه معمول بالبلوشي ، ومن خلال مثل هذه البرامج يمكن للعاملين مجاملة المسئولين عن البرامج والإدارة فيشركونهم فى الحوار . هناك برنامج عن الشاعر الخالد كامل الشناوى سجلوا فيه لمصطفي أمين ، ولكن عند إذاعة البرنامج ظهر مصطفى أمين لمدة دقيقة ، أما المتحدث الرئيسى فكان مدير الإذاعة ، مع أنه لم يلتق بكامل الشناوى فى أى وقت . ولكن لا شيء يهم ، فمن الذى سيعترض ؟ ومن الذى سيحتج ؟! المهم أن المذيعة ستحظي برضاء المسئول في الجهاز ، والمخرج سيصيبه جانب من الحب ، والمعد سيفتح قناة بينه وبين هذا المسئول .. ولذلك فأجهزة إعلام الحمير ليست أجهزة للإعلام ، ولكنه سوق وصاحبه غايب ، وتجارة والتجارة تحب الشطارة . قلت للبنت الخواجاية : ولكن عندنا في بلاد الحمير قناة فضائية حلوة اسمها الجزيرة ، هل تشاهدين الجزيرة ؟

قالت البنت الخواجاية : آه من الجزيرة .. وآه على الجزيرة .. إنها دليل على حموريتكم وعلامة عليها .. ولكن فلنؤجل الحديث إلى الفصل المقبل .





٥

وكما قال ابن سعدون !

■ إذا كانت آفة بنى حمير حب الرئاسة - كما يقول ابن خلدون - فأسوأ صفات بني حمير - كما يقول ابن سعدون ، الذى هو العبد لله - حب البغبغة والكلام . قالت البنت الخواجاية : أضعتم أنتم يا بنى حمير زمنا طويلا تتحدثون فيه عن الغزو الفكرى ، والغزو الثقافى ، والغزو الإعلامي .. ثم سكتم فجأة . وأكد بعضكم أنكم بحمد الله تتمتعون بحصانة ضد كل أنواع الغزو ، إلا الغزو العسكرى ! لأنكم والحمد لله من أنصار السلام ، ولأنكم - والحمد لله - أصل ومهد الأديان السماوية ، والسيد المسيح يدعوكم إلى الصفح .. ومن ضربكم على الخد الأيمن فلا بأس من تسليم الخد الأيسر له ، ونبى الإسلام محمد عليه صلوات الله وسلامه يدعو إلى إفشاء السلام وتحيته .. السلام عليكم .

وفجأة استيقظتم ذات صباح على قناة فضائية ، كل المؤسسين لها وأغلب العاملين فيها تربوا وتعلموا وتدربوا فى الـ B.B.C البريطانية ، قناة تفكر بالانجليزى ولكنها تتكلم العربية ، وهى لا تبث من خارج الحدود ، ولكن من داخل بلدكم . وفوجئتم أيضا بأنها تجاوزت كل الأنماط العربية فى مجال الإعلام ، وخرجت عليكم بنمط جديد ، جرأة متناهية واقتحام لمشاكل حرص بنى حمير على إخفائها

الدهر كله . ثم هي ليست متسللة ولكنها شرعية ، فهي تنتسب لقطر خليجي ، وكل مقيم في الخليج له كفيل ، وكفيل القناة إياها هو الدولة نفسها ، ولكن لا علاقة للدولة بالقناة ولا شأن لها بما يجري فيها . وللقناة مهمة محددة وهي تسعى لتحقيقها في دأب وبإخلاص شديد للغاية . أولى هذه المهام هي تقديم إسرائيل للعرب على أنها حقيقة واقعة ، لا يمر يوم دون أن يظهر على شاشة القناة إياها وجه من وجوه الإسرائيليين القبيحة . يتكلم مع المذيع من داخل إسرائيل ، ويكون غالبا من رجال السلطة أو من رجال الصحافة . ويبدو هذا الضيف غالبا في صورة الرجل المنصف العادل ، فيتكلم بلسان حمامة السلام ويدعو إلى صداقة العرب ومودتهم .. إلى جانب هذا تجري أحاديث أحيانا مع بعض الزعماء الفلسطينيين .. ذات مرة أجرت القناة حديثا مع الشيخ أحمد ياسين ـ الزعيم السياسي لمنظمة حماس ـ ثم استدرجته إلى الحديث عن العمليات الإرهابية التي دبرها ونفذها وسقط فيها عدد كبير من القتلى الإسرائيليين . رعايا إسرائيل الذين يظهرون على شاشة الجزيرة كلهم قمة في التمدن والتحضر ، وكلهم من أنصار السلام ويرفعون أغصان الزيتون ، أما (شيخ الإسلام) الذي استدرجوه إلى الجزيرة فهو قاتل وسفاح .. وهذه الأوصاف ليست تهما توجهها إسرائيل إليه ، ولكنها اعترافات للشيخ نفسه و .. (من فمك أدينك يا إسرائيل!) .. وندواتها الحارة التي تعقد بشكل دائم هي شهادة بأن العرب شعب من الهمج ، فكلها زعيق وصراخ واتهامات وتجريح يدفع بعض المشتركين إلى الانسحاب كما حدث مع الصحفية المصرية صافيناز كاظم ومع رئيس وزراء الجزائر رضا مالك . وهي شهادة من شبكة إعلامية (عربية) على أن العرب (ظاهرة صوتية) بالفعل ، كما أطلق عليها مفكر عربي

منذ فترة ! وهى تختار بين الحين والآخر بعض الذين لا وزن لهم لتجعل منهم نجوما ، شريطة أن يقوموا بالهجوم على حكوماتهم ! وهى ترفع شعار الديمقراطية ، مع أن القطر الذى تدعى الانتساب إليه علاقته بالديمقراطية كعلاقة خالتى نفيسة باللغة الهيروغليفية ! وفى كل برامجها تتعمد الإساءة إلى قطرين عربيين : مصر كبيرة العرب ، والسعودية كبيرة منطقة الخليج ، لأنه إذا كان الهدف الرئيسى هو ضرب العرب فلا بد من تفريقهم أولا . وهى تتعمد الخوض في مشاكل حساسة للغاية ، وهى تفجر هذه المشاكل لتعميق الخلاف وللتمهيد لحرب أهلية عربية لا تبقي ولا تذر .. الأكراد فى العراق ، والشيعة فى السعودية ، والأقباط فى مصر ، البربر فى الشمال الأفريقى ! وجميع نظم الحكم فى جميع الأقطار العربية لا تعجبها ، وهى نظم غير شرعية .. النظام الوحيد المستثنى من هجومها هو النظام القطرى ، مع أن حكومة قطر هى الحكومة الوحيدة التى تضم ١٢ وزيرا من عائلة واحدة ! وقد يقول قائل : إن سكوت الجزيرة عما يجرى فى قطر هو دليل على أن قطر تملكها . وهو أمر غير صحيح على الإطلاق . ولكن المسألة وما فيها أن الاستعمار البريطانى اخترع تحشيشة خاصة بمنطقة الخليج . فكل مقيم هناك لابد أن يكون له كفيل من أهل البلاد . ولأن الجزيرة مقيم من نوع خاص فالحكومة نفسها هى الكفيل . أما أصحابها الحقيقيون فهى جهة خارجية لها منزلة خاصة . والدليل على ذلك أن الكويت عندما شعرت بأنها مستهدفة من هذه القناة ، قامت بغلق مكتبها وطرد مندوبها من البلاد ، والقانون الكويتى ينص على أن كل من يطرد من الكويت لجريمة سياسية ، فإنه لا يسمح له بالعودة إلى الكويت إلا بعد خمسة وعشرين عاما وبقرار من مجلس الوزراء . ولكن بالنسبة لمكتب

الجزيرة ومندوبها فقد جرى العفو عن الجميع بعد مرور خمسة عشر يوما فقط ، وهو أمر يعطيكم فكرة عن عظمة وقوة وجبروت الجهة التى تتبعها قناة الجزيرة .

قلت للبنت الخواجاية : ولكن وبالرغم من ذلك لابد أن نعترف بأن هذه القناة ألقت حجرا فى بحيرة الإعلام العربى الراكدة والآسنة أيضا . ردت البنت الخواجاية على الفور :

نعم .. وهذا الهدف مقصود أيضا .. فمن عيوب الإعلام العربى أنه أخرس ، ونشرة الأخبار لا تحوى إلا زيارة المسئولين المحليين وتصريحاتهم ، أما ما يجرى فى الواقع فلا شأن للإعلام العربى به . وهذا الواقع المرير هو كارثة بكل المقاييس ، ولكنه في الوقت نفسه خط دفاع قوى تلجأ إليه النظم العربية الضعيفة في مواجهة المحاولات الغربية لاختراق الأسوار واللعب فى عقول الناس . وفى عصر العولمة والنظام العالمى الجديد لابد من هدم كل الأسوار وفتح كل الحصون لكى يشق الأجنبى طريقه إلى الداخل ، ولكى يرتع داخل المجتمعات العربية على هواه . قلت للبنت الخواجاية : ولكن يبقى لقناة الجزيرة أنها قناة مفتوحة لا تخفى شيئا ولا تتستر على شىء : واللى فى قلبها على لسانها ، بعكس جميع الأجهزة العربية .

ضحكت البنت الخواجاية وقالت : ما تقوله هو مجرد وهم .. إنها تقول لك شيئا وتخفى عنك أشياء .. خذ عندك مثلا .. فى حادث وقع قريبا فى قطر ..

وزير قطرى سابق قتل شقيقتيه وحاول قتل زوجة أبيه ، ولكنه فشل لأسباب خارجة عن إرادته . ونشر الخبر فى أجهزة الإعلام فى العالم لأنه خبر غريب ولا يحدث إلا نادرا ، وزير سابق ويرتكب جريمة قتل ؟!! ضد من ؟! ضد بعض أفراد أسرته .. ولكن قناة الجزيرة لم

تجد فى الخبر ما يستحق النشر لأن المتهم من عائلة الكفيل .

قلت للخواجاية : ربما رأت الجزيرة أن عدم النشر أفضل من باب أخلاق القرية ، فقطر هى مجرد قرية وكلهم أقارب وإخوان ولا يصح فضيحة الأقارب والأشقاء . قالت البنت الخواجاية : يجوز .. ولعل ذلك هو السبب فى أن الجزيرة لم تنشر خبر اصطدام القارب الأميرى فى البحر المتوسط بالعبارة فى مواجهة ساحل مرابيا! ولكن أيا ما كان السبب فى عدم النشر ، فإن الجزيرة تكيل بمكيالين ، فهى تنبش فى أضابير السعودية مثلا ، وتعبث بمصارين الكويت ، وتفتش فى كل ركن في أنحاء مصر بحثا عن خبر من هذا النوع . ولكن بالنسبة لقطر فالستر واجب ! وهى بالنسبة للمسائل القومية أمرها عجب ، فهى مع العراق أحيانا ولكنها فى الجانب الأمريكى على الدوام ! وأثناء غارات ثعلب الصحراء ، التى دمرت العراق تدميرا ، وقف وزير خارجيتها الحدق يقول بالحرف الواحد : « نحن لا نستطيع أن نمنع الطائرات الأمريكية من استخدام قواعدها فى بلادنا لأننا دولة صغيرة » : ولكنه عند افتتاح المؤتمر الاقتصادى فى الدوحة ، والذى حضرته إسرائيل وقاطعته مصر وغيرها من الأقطار العربية ، وقف يقول : « نحن لن نخضع لابتزاز الكيانات العربية الكبيرة التى تتصور أنها قيادة العرب ، وعلى الجميع أن يعلموا أن الدولة الكبيرة ليست هى صاحبة الحجم الكبير ، فالمساحة وعدد السكان لا علاقة لهما بالأحجام الحقيقية ، بدليل أن إسرائيل وهى أصغر دولة فى المنطقة حجما وسكانا هى فى واقع الأمر أكبر دولة فى منطقتنا » .. مرة يعلن أنه دولة صغيرة ، ومرة يعلن أنه دولة كبيرة ، وهو فى الحقيقة لا هو صغيرة ولا كبيرة ، ولكنه مجرد مخبر ، وعليه أن يمارس العمل المكلف به فى كل مكان حسب الأوامر والتعليمات . وأقول لك سرا قد

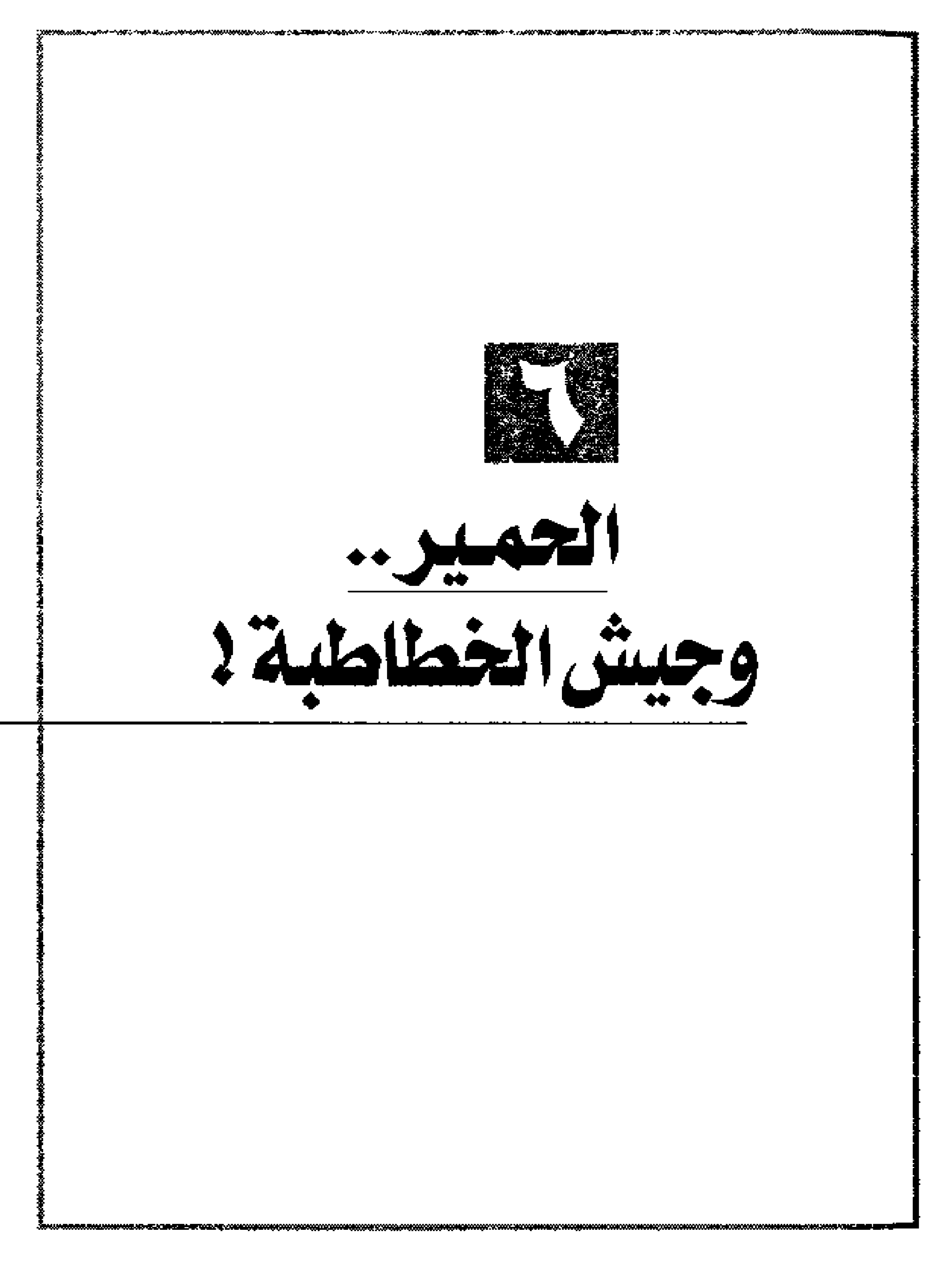
لا تعرفه لا أنت ولا غيرك من العرب وهو أن قطر هى القطر العربى الوحيد الذى اتخذ موقفا معاديا تجاه حرية استقبال القنوات الفضائية العربية .. فهى الدولة الوحيدة التى تحظر استخدام الدش ، وتعمل بنظام « الكيبل » الذى يبث عددا من القنوات العربية المنتقاة ، أما باقى البرامج التى يبثها « الكيبل » فهى برامج إيطالية ورومانية وبلغارية وألمانية لا يفهم المواطنون لغتها ، أما « عرب سات » و « نيل سات » فمحظور مشاهدتها فى قطر على الإطلاق .. والأغرب من هذا أن قناة الجزيرة نفسها ممنوعة من البث على « الكيبل » حيث يسمح بمشاهدتها بعد الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وهناك مناطق كثيرة فى قطر نفسها لم تشاهد هذه القناة مطلقا ، ولكن يسمعون عنها من خلال الجرائد والمجلات ومن المضحكات المبكيات أنها أحيانا - وفى مسائل جادة للغاية - تستعين بمعلقين من طراز رفيع للتعليق على الأحداث العالمية أو إبداء الرأى فى المشاكل الدولية .. ستقول ما العيب فى ذلك إذا استعانوا بمحمد حسنين هيكل وإبراهيم نافع ومكرم محمد أحمد وكامل زهيرى ومحمد عودة وآخرين فى حجمهم .. وأجيبك : إنهم يستعينون برؤساء تحرير جرائد قطرية لم يسمع بها أحد منهم! أحمد عبده ، وأحمد برعى ، وأحمد مرعى ، وأحمد سبع الليل .. إلى آخر أفراد عائلة أحمد المعروفة والمسموعة فى السياسة الدولية !

وخذ عندك أيضا بالنسبة للسياسة العالمية : إنها اللسان الصادق الأمين لكل ما تريده الدوائر الاستعمارية ، فهى تصف المقاتلين الأبطال فى داغستان بالإرهابيين ، وتصف الميليشيات الموالية لاندونيسيا فى تيمور الشرقية بمثيرى الشغب ، وتصف أبطال كشمير المسلمين الذين يسعون بكل قوة للاستقلال والخلاص من ظلم

الهندوس المتعصبين بالانفصاليين .. وهي حريصة على تقديم النماذج المؤذية من بين المسلمين ، فضيفها الدائم على برامجها هو إرهابي صاحب سوابق ومعروف ، وهي توقع بالرجل الطيب « أبو داود » الفلسطيني بطل حادث ميونخ لتجعله يعترف على الملأ أنه هو الذي خطط ونفذ حادث خطف وقتل الإسرائيليين من كباتن كرة القدم .. وهي دائما تغمز وتلمز في موضوع سعى السلطة السورية لتعيين السيد بشار خليفة لوالده في حكم سوريا .. وأخيرا وليس آخرا تبدى قناة الجزيرة أسفها الشديد على زوال عصر الاستعمار ، وتقول بالمفتشر الصريح « هل حدث تبديل أو تغيير في حياة المواطن العربي عما كان عليه أيام الأستعمار؟ » وتقول : « لماذا يتحسر كثير من الناس على زوال الاستعمار في بعض الأقطار العربية ؟ ولماذا يتمنى بعض الناس عودته؟ » وتقول في النهاية : « أليس أفضل لبعض الأقطار العربية عودة الوصاية عليها؟! » : إنها ليست جهازا إعلاميا على الإطلاق ، ولكنها عدو صريح استطاع أن يتسلل إلى داخل الأسوار لكي يعيث فسادا في الأرض تحت ستار الديموقراطية والحرية .. ولذلك أقول لك إن هذه القناة الفضائية التي تطلق على نفسها اسم الجزيرة هي الدليل القوى والدامغ على حموريتكم ، لأنكم مبهورون بها وسعداء ببرامجها ، رغم أنها أعلنت في وقاحة أن انسحاب السعودية والكويت من بطولة العالم للشباب في كرة اليد - التي أقيمت في قطر واشتركت فيها إسرائيل - جاء نتيجة عدم الثقة بالنفس ، وأنها تخلف عن روح العصر ، كما أنها عملية دفن للرءوس في الرمال تصوروا .. أصبح احترام النفس عملية تخلف والشعور بالاستقلال تحول إلى شعور بالنقص ، ولكنها قناة الجزيرة .. وهي بالفعل جزيرة داخل الوطن العربي للعمالة والخيانة والاسترزاق !

وأعظم دليل على ذلك هو لقطة تستغرق دقيقة واحدة تذيعها القناة أكثر من مرة في اليوم الواحد . لقطة يظهر فيها هتلر وهو يخطب بطريقة جنونية ، ثم يعقبه موسوليني أثناء خطاب جماهيري بدا فيه كالوحش الهائج .. ثم فجأة يظهر بعدهما مباشرة جمال عبد الناصر وهو يحيي الجماهير بعد تأميم قناة السويس ، ثم يظهر القذافي ، ثم تنتهي الومضة الإعلامية بدون تعليق . ما هو المقصود من هذه اللقطة بالتحديد ؟ ولماذا الربط بين هتلر وموسوليني وجمال عبد الناصر ومعمر القذافي ؟! وما من أحد وصف عبد الناصر بالدكتاتورية إلا إسرائيل ومن ورائها معسكر الاستعمار العالمي . ألم أقل لك إنها قناة مشبوهة نجح الاستعمار في زرعها داخل الجسم العربي المريض ؟! ولكن هل ينجحون في حمايته إلى الأبد ؟ أم يتخلص منها ويعود إلى طبيعته الأولى .. إلى جذوره القديمة أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الداخل والملك الظاهر بيبرس العظيم ؟.. هذا هو السؤال !





٦

الحمير..
وجيش الخطاطبة!

قلت للبنت الخواجاية : مابالك أصبحت حميرية أكثر من الحميريين أنفسهم ؟! قالت البنت الخواجاية : صدقت .. عندكم مثل يقول : من عاشر القوم أربعين يوم صار منهم .. وأنا والحمد لله عرفتكم وخبرت أحوالكم وأصابنى الهم والغم عندما اكتشفت السبب الحقيقى وراء خيبتكم ووكستكم .

سألتها ولكن هل صحيح تعرفت على السر ؟ قالت بالتأكيد السر واضح وظاهر ، وعلى عينك ياتاجر . ولكن الوكسة الكبرى أنكم لا ترونه ، وربما ترونه وتتغابون ، أو تتحامرون ! ولو ثبت أن هذا هو حالكم فـ .. قل على الدنيا العفاء . ويصبح لا أمل فى شىء ولا خيط من النور فى نهاية النفق . توسلت للبنت الخواجاية : اكشفى لنا عن هذا السر .. أنا فى عرضك ، قالت : أنت أيضا علامة من علامات الوكسة لأن السر أمامك واضح وظاهر ومع ذلك لا تراه .

قلت لها : احتشمى ياخواجاية ، فأنا لست على هذه الدرجة من الغفلة . ضحكت البنت وقالت : بل أنت الغفلة نفسها ، والدليل على ذلك انك لا تراه .

قلت لها : طيب .. دلينى ياست .. شاورى فقط ، وستجديننى إن شاء الله من الناس الفاهمين . قالت : الكارثة الكبرى انك لا تراها ،

ويبـدو أنك لا تريد أن تراها . ولا اقـصـدك أنت وحـدك .. ولكنى أقصدكم جميعا .. بنى حمير كلهم.. ملوكهم وسلاطينهم وأمراءهم ورؤساءهم ووزراءهم وتجارهم وصياعهم ، واصحاب الكروش .. ورجال المال ورجال الأعمال ، الكل يرى الخيبة ولكنكم لا تتعرفون على أسبابها . وكأنه اتفاق فيما بينكم على أن تغمضوا عيونكم وتفتحوا أقفيتكم . قلت للبنت الخواجاية : يخرب بيت أبو سيادتك .. كفى تقريعا وتعنيفا ، واكشفى لنا السر ربنا يستريك ويخليكى قالت : اسمع يا بلدياتى أنتم فى الحقيقة لا تعيشون فى دنيانا ، أنتم تعيشون فى دنيا من صنعكم كأنكم مشتركون فى مناظرة تلك المناظرات التى كنا نشترك فيها فى مرحلة الدراسة الثانوية : الباخرة أم القطار ومجموعة تلامذة مع القطار ومجموعة أخرى مع الباخرة كل فريق منهمك فى حصر فوائد القطار أو مزايا الباخرة ، وكل فريق لا يسمع الفريق الآخر المهم هو حشد أكبر كمية ممكنة من مزايا القطار أو مزايا الباخرة .

من أين جاء لك هذا الإحساس يا خواجاية ؟

قالت ؟ خذ عندك أنتم مثلا من الشعوب المختلفة عندكم أمية نسبتها كبيرة وتعليمكم العالى ليس بالمستوى المطلوب . وفنونكم لم تتمكن من اختراق حدودكم . ومع ذلك لديكم اثنان من حملة جائزة نوبل . أحدهما فى الأدب اسمه نجيب محفوظ والآخر فى الكيمياء واسمه أحمد زويل .. هذا شيء يجعل الناس عندكم تفخر بهما وبإنجازهما ، ولو فى بلد آخر لأقاموا لهما التماثيل فى الشوارع قلت للبنت الخواجاية : الحمد لله .. وقعك الله فى شر أعمالك . فنحن مع نجيب محفوظ نصنع له تماثيل من الذهب فى قلوبنا . وبالنسبة لزويل فقد احتفلنا به قبل أن يحصل على الجائزة ولا احتفالنا بالقادة

الفاتحين ! ضحكت البنت الخواجاية : هل أنت عايش معنا هنا ؟ أم أنت مهاجر وعايش فى استراليا ؟! يا راجل .. نجيب محفوظ حاولتم ذبحه بخنجر مسموم .. واغلب الذين احترفوا الكتابة فى غفلة من الزمن اكدوا أن سبب حصولهما على الجائزة هو موقفهما المسالم من إسرائيل . محفوظ أمير المسيرة السلمية .. وزويل لم يكتف بهذا بل زار إسرائيل وخطب فى الكنيست . قلت لها : وهذا صحيح . قالت : هذا صحيح فعلا .. ولكن ما علاقة هذا بجائزة نوبل ؟ هل نجيب محفوظ هو سيد كتاب الرواية فى العالم الحميرى ، أم هو من أحاد الناس ونسبوا له روايات لم يكتبها وقصصا لم يفكر فيها ؟ قلت : لا ، بل هو سيد كتاب الرواية جميعا . قالت : وهل زويل مدرس فى مدرسة حسن نصار أم هو باحث وعالم استطاع الوصول إلى اختراع فى الليزر لم يسبقه إليه أحد من قبل ؟ قلت .. بل هو كذلك قالت البنت الخواجاية : طيب .. ما هى الغرابة إذن فى أن يحصل كل منهما على جائزة نوبل ؟ وما علاقة إسرائيل بهذا الأمر ؟ ثم نفرض أن على برعى وإبراهيم الجحش زارا إسرائيل وتزوجا من الإسرايئليات .. هل يحصل كل منهما على جائزة نوبل .. أو حتى على جائزة موبيل ؟!

قلت للبنت : طبعا لا .. المسائل ليست بهذه البساطة ، فما علاقة برعى والجحش بدنيا الأدب والعلم ؟! قالت البنت : طيب عندكم واحد يكتب احيانا موضوعات إنسانية ، وهو يعمل مندوبا للإعلانات ويصدر أحيانا كتبا من إياها ، غالبا تباع بالأقة ، هذا الأفندى قدمته القناة الفضائية المصرية فى أحدث برنامج أدبى بعنوان « إبداع » .. واستعرض البيه إياه حالته النفسية والذهنية فى لحظة الإبداع وشرح للمستمعين فيما وراء البحار .. كيف يهبط عليه الوحى ، وكيف يحلق

في سماء الإبداع . ومع أنه يوجد لديكم عدة آلاف من المبدعين ، من أول نجيب محفوظ إلى أسامة عفيفي ومحمد ناجي ، ولكن لا أحد منهم ظهر في البرنامج إياه .. وبالتأكيد لن يظهر أحد منهم فيه . هذا « المبدع » زار إسرائيل واجتمع مع رئيس الكنيست ، وتناول الغداء مع شارون ، وشرب الشاي مع بيريز ، وصافح رابين .. وقضى السهرة في بيت رؤساء إسرائيل فهل تعتقد حسب نظرية بعضكم أن المؤلف إياه (عبده مصطفى) سيحصل قريبا على جائزة نوبل أجبتها : لا اتصور أن يحدث شيء مثل هذا

قالت : إذن اتفقنا .. سألتها : اتفقنا على إيه ؟ اتفقنا على أن جائزة نوبل ذهبت إلى المكان الصحيح في الحالتين ، حالة نجيب محفوظ ، وحالة الدكتور زويل . قلت : نعم .. قالت . طيب ليه بقى التماحيك اللى مالهاش لازمة ؟ إن من يقرأ بعض صحفكم هذه الأيام يتصور أن نجيب محفوظ حجب الجائزة عن الكاتب اسماعيل شنشور ، ولكن حظ الكاتب شنشور أنه على علاقة غير طيبة بإسرائيل ! بغبائكم أيها السادة جعلتم إسرائيل هي ميزان الحياة وحجر الأساس لهذا الكون ، من يهادنها نال المنى كله ، ومن عاداها نهار أبوه أزرق . قلت لها : وهذا كله صحيح . قالت : بالعكس . خد عندك أمثلة كثيرة . القائد جعفر نميرى . خدم إسرائيل خدمة جليلة . نقل يهود الفلاشا من اثيوبيا إلى تل أبيب .. صحيح أنه حصل على الثمن دولارات جديدة تدبع الكتكوت ، ولكن إسرائيل وقفت تتفرج عليه وهو يسقط مثل عمارة « كاملة » تبع مصر الجديدة . لو كانت إسرائيل كما تتصورون لحالت دون سقوطه . صحيح إسرائيل دولة نشيطة واكبر من حجمها ، ولكنها تبقى دولة صغيرة لها حدود لا تستطيع أن تتعداها .

فهى مثلا لا تستطيع أن تحدد الفريق الذى يحصل على كأس العالم ، وليس بإمكانها منع دولة من الدخول فى النادى النووى . ولو كان الود ودها لما استطاعت باكستان أن تصبح دولة نووية ، وعلى هذا الاساس فقصوركم وخيبتكم ليست بسبب إسرائيل ، ولكن بسببكم أنتم ، فالخيبة نابعة منكم ومنبثقة من أعماقكم . أما إسرائيل فهى مجرد شماعة تعلقون عليها اخطاءكم . قلت للبنت الخواجاية : قد يكون كلامك يحمل شيئا من الحقيقة ، ولكنه ليس كل الحقيقة ردت البنت متحدية : بل هى كل الحقيقة ، ودعنى أقلها لك صريحة ، أنتم فى واقع الأمر هنود حمر هذا الزمان . حتى الهنود الحمر كانوا يختلفون عنكم ، كانوا إذا تأكدوا من خيانة أحدهم تصرفوا بسرعة وجعلوه عبرة لغيره من الهنود . ومع ذلك ظل النميرى موضع احترامكم وتقديركم حتى بعد انكشاف عملية الفلاشا . هناك ملك آخر ثبت يقينا أنه كان عين إسرائيل عليكم ، وقدم لها خدمات جليلة . ومع ذلك احتشدتم جميعا بربطة المعلم خلف جنازته ، وبكيتم بالدمع الهتون على قبره . هناك ملك آخر ثبت أنه كان حريصا على استضافة مؤتمرات القمة فى عاصمته . ولم يكن الهدف بالطبع رفع شعار (الثورة قايمة والكفاح دوار) ولكن الهدف الحقيقى كان تهيئة الجو للموساد الإسرائيلى لتسجيل اجتماعات كل القمم التى عقدت تحت رعاية جلالته ، ومع ذلك عندما مات جلالته كان هو الرئيس الأعلى للجنة مهمتها الحفاظ على المدينة المقدسة وإفشال المحاولات لتهويدها ! ، وأسألك الآن : كيف يستقيم هذا الوضع ؟! ، وصلاح الدين الأيوبى فى زمانكم هو نفسه على خنفس ! هل أنتم سذج ؟ أم حمير حصاوى من النوع السميك ؟ أم أن أى شىء صار فى نظركم مثل كل شىء ؟ أم أنكم أصبحتم شعبا بلا وزن تقضى الأمور فى

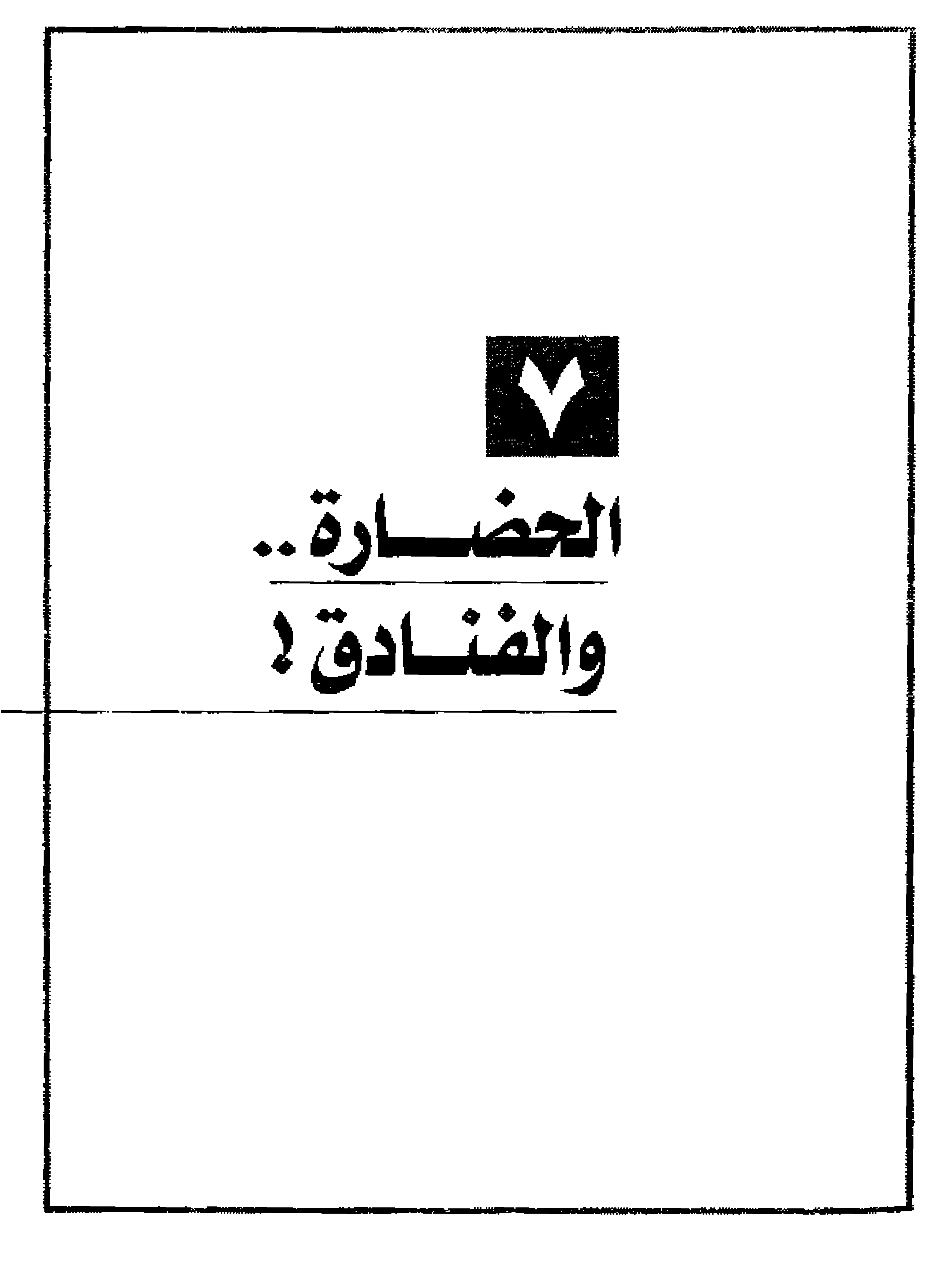
غيبتكم ، ولا تستشارون وأنتم حضور ؟! صار شأنكم شأن سيدنا العباس ، عندما توفى سيدنا النبى عليه الصلاة والسلام ، اختلف المهاجرون والأنصار ، والبعض رشح أبا بكر للخلافة ، والبعض الآخر رشح على بن أبى طالب ، والبعض همس باسم طلحة ، وآخرون أشاروا إلى الزبير وحسم سيدنا عمر الأمر وتقدم من أبى بكر وقال له : مد يدك أبايعك حسما للخلاف . وهكذا صار أبو بكر هو خليفة رسول الله . ولما حضرته الوفاة عهد بالخلافة إلى عمر ، وعندما اغتاله المجوس طالب بلجنة عليا من سبعة أشخاص يختار الخليفة من بينهم ، ولو يكن بينهم العباس ، واختاروا عثمان وصار خليفة للمسلمين ، وعامان .. ونشبت الفتنة بين على ومعاوية ، وصار على خليفة للمسلمين ، حتى كانت الفتنة ونجحت مؤامرة بيت أبى سفيان ، وتولى معاوية الخلافة . كل ذلك جرى والعباس حى يرزق لم يقدم نفسه للخلافة ولا رشحه أحد لخلافة المسلمين ، ولكن بعد موته بمائة عام وثب إلى السلطة تنظيم سياسى يحمل اسمه ، وحكم العباسيون دهرا طويلا ، مرة من بغداد ،ومرة من القاهرة ومرة من اسطنبول . ويبدو أن التاريخ يعيد نفسه احيانا .. هاهو الشعب العربى كله ومن ورائه كل الشعوب الإسلامية ، ومع ذلك لا تقيم حكومة إسرائيل وزنا للجميع . إذا أصدرت قرارا لا يعجب مائة مستوطن إسرائيلى . سارعت حكومة إسرائيل بلحس القرار دون أن تقيم وزنا لهذا الكم الهائل من العرب والمسلمين حفنة مستوطنين فى كفة وبحر العرب والمسلمين فى كفة أخرى . ونصفكم يتهم نصفكم الآخر بالخيانة . السادات مثلا اتهمه ـ الجميع خصوصا الحكام ـ بالخيانة ، ثم بعد ذلك ساروا جميعا على دربه . ياسر عرفات اتهموه بالخيانة بعد اتفاقية أوسلو ، ثم بعد ذلك جاءوا جميعا على طريق أوسلو ، جورج

حبش ونايف حواتمة ، ومصطفى أبو على وعلى أبو مصطفى . اختلطت أوضاعكم واحوالكم ، ولم يعد أحد يتبين من هو الخائن ، ومن هو الوطنى .. من هو أعظم وأكرم عند الناس الآن : المليارديير عبد المنعم سعودى ، أم المقاتل البطل عبد المنعم واصل ؟! وهل لايزال أحد يذكر عبد المنعم واصل ، كم من شباب اليوم يمشى على طريق رجل الأعمال أحمد بهجت ، وكم عدد الذين يحاولون السير على طريق البطل أحمد عبد العزيز ؟! حتى منظماتكم الفدائية هى فى واقع الأمر منظمات إعلامية أغلب المناضلين تراهم على شاشة قناة الجزيرة التليفزيونية ، حتى الشيخ أحمد ياسين زعيم منظمة حماس صار يقضى أغلب الوقت هناك تقولون إن عدد العرب ٢٠٠ مليون وعدد المسلمين مليار . لو عندكم منظمة واحدة تضم ٢٠٠ مجاهد فقط من أمثال خطاب وشامل باسابيف بتاع الشيشان ! لو نجحوا فى اقتحام مدينة إسرائيلية واحدة وأخذوا مائة رهينة إسرائيلية مرة واحدة . لو ثبتوا داخل إسرائيل ودخلوا معركة واحدة مع الجيش الإسرائيلى على طريق غزة أو على طريق القدس ! لو حطموا عدة دبابات وقتلوا عدة جنود وخطفوا عددا من الأسرى ، لو حدث هذا مرة واحدة لفكرت حكومة إسرائيل طويلا قبل أن تتخذ قرارات تسىء إليكم . ولكن الإنصاف يدعونا إلى الاعتراف بأن حزب الله اللبنانى هو التنظيم النضالى الوحيد الذى سلك الطريق الصحيح . ولو أحسنتم لجمعتم له ما يحتاجه من اسلحة وأموال ، ولحشدتم له ما ينقصه من مقاتلين وأفراد . لو عندكم عدة تنظيمات فدائية من نفس النوع تعمل من مختلف الجهات ، لكان الحال غير الحال ولما كان هناك شىء اسمه مشكلة فلسطين . ولكن مصيبتكم الكبرى أنكم تصنعون ما يضر مصالحكم . مثلا .. دول منطقة الخليج اجتمعت

واتفقت على تأسيس شركة طيران واحدة للمنطقة . وقامت الشركة بالفعل وانتشرت وانتعشت ، ولكن لم يكد يمر وقت طويل حتى نشأت شركة طيران جديدة خاصة بدولة قطر . ثم تأسست شركة أخرى خاصة بإمارة دبى ، ثم انشقت الأرض عن شركة ثالثة لسلطنة عمان ، وكانت النتيجة انهيار الشركة الكبرى ، فى الوقت الذى لم تنتعش أحوال الشركات الأخرى ! وأخيرا ترشح اثنان من العرب لرئاسة اليونسكو ، وبدلا من التنسيق بينهما ذهب أحدهما للتنسيق مع المرشح اليابانى !! وما يحدث بين العرب يحدث أيضا بين المسلمين . فى خضم الحرب المشتعلة بين العرب المسلمين وإسرائيل ، عقدت تركيا المسلمة حلفا استراتيجيا مع إسرائيل وخلال نضال المسلمين فى كشمير ضد الهند من أجل الاستقلال ، تقف دولة إسلامية وعربية مع الهند ضد مسلمى كشمير . هل تريد أدلة جديدة ياحمارى الصغير على سوء سلوككم وقلة فهمكم وتجنبكم للطريق المستقيم ؟! هل لا يزال عندكم أمل فى تحسين الأوضاع ، أم أنك ستوافقنى على أن اليوم اسوأ من الأمس ، والغد سيكون أسوأ من اليوم ؟!

وقبل أن أرد على البنت الخوجاية التى تنعق كالبومة ، تركتنى ونهضت ، وقالت : الآن سأنام . فالنوم هو العمل الوحيد الصالح فى الزمن الردىء





٧

الحضــارة.. والفنــادق !

قلت للبنت الخواجاية :

منذ فترة طويلة وحضرتك نازلة حتتك بتتك كأن هدفك هو نحل وبرنا ونزع شعر أبداننا بالأظافر ، وألصقت بنا كل نقيصة ونسبت إلينا كل رذيلة ، ووصفتنا بكل صفة قبيحة لا ترضى الرب أو العبد وهو عمل شائن يدل على أنك طرف فى المؤامرة التى تدبر ضدنا

ضحكت البنت الخواجاية حتى استلقت على قفاها وقالت : ما نطقت به الآن هو دليل خيبتك التى هى أعرض من شارع الشانزلزيه ، وأطول من شريط سكة حديد الشرق السريع الذى كان يقوم من محطة القاهرة ولا يتوقف إلا فى محطة فيينا بالنمسا . أنت تتصور أن كل ما فعلته في حقكم هو مجرد افتراء ، مع أن ما قلته هو أقل من الحقيقة ، وأنت تتصور أن هناك مؤامرة ، وهذا الكلام هو حجة البليد الذى مسح التختة ! إذا نزلت بكم هزيمة فهى مؤامرة ، وإذا حلت بكم كارثة فهى نتيجة مؤامرة . إنها نظرية شنكورية لا أساس لها من الصحة وإذا صحت تكونوا أنتم أنفسكم انشط طرف فيها . فأنتم فى الحقيقة أعداء أنفسكم ، ترتكبون الأخطاء ثم تتهمون أعداءكم بالتربص بكم . خذ عندك مثلا ، فى حرب فلسطين

الأولى لم يكن لديكم أى معلومات عن العدو . لا عدده ولا سلاحه ولا درجة استعداده . الأخطر من ذلك أنكم كنتم لا تعرفون أى شيء عن جبهتكم ، فقد ثبت بعد الحرب أن الأردن لم يكن فى صفكم ، ولكنه كان اقرب إلى صف عدوكم المؤامرة الوحيدة التى دبرت ضدكم هى حرب ١٩٥٦ ، دبرتها فرنسا وإنجترا وإسرائيل ، ولكن ثبت أنكم كنتم تأكلون أرزا مع الملائكة ولم يكن لديكم أدنى معرفة بها ، بالرغم من أنكم كنتم فى تلك الفترة تباهون الأمم بقوة مخابراتكم ، وتدّعون أن بإمكانها أن تسمع دبة النملة فى أى بقعة على ظهر الأرض . وبالرغم من أن حضارتكم عمرها ٧ آلاف سنة ، فإنكم لم تبرزوا فى أى علم ، ولم تسجلوا أى نصر ولم تتركوا بصمة فى أى مجال .

قلت للخواجاية : ثبت الآن أنك من فصيلة الضباع تنكرين الشمس الساطعة والحقائق الدامغة ، وأنتم فى الغرب تتباهون هذه الأيام بالشركات العملاقة ، بنوك كبرى تندمج وشركات طيران تتحد ، ورأسمال بمليارات ، وحجم عمل لم يشهد العالم له مثيلا من قبل . هل تنكرين يابنت الكذابة أننا كنا أسبق الأمم إلى إنشاء مثل هذا الكيانات العملاقة . هل تنكرين الخطوة الجبارة التى اتخذها العملاق السعد والعملاق الريان بلقاء العمالقة ؟

قالت البنت الخواجاية : ولكنكم اقدمتم على ضرب العمالقة بلا هوادة وبلا رحمة ، سجنتم عملاقا وهرب عملاق آخر ويعيش الآن مع العمالقة فى أوربا فى أمان واطمئنان لقد فعلنا ذلك لأننا اكتشفنا أنهم لصوص ونصابون وبتوع تلات ورقات . ضحكت البنت وقالت : عجايب ، مرة تصفهم بالعمالقة ومرة تصفهم باللصوص ، أى الأوصاف تنطبق على الحقيقة ؟ قلت لها : الأوصاف كلها مضبوطة

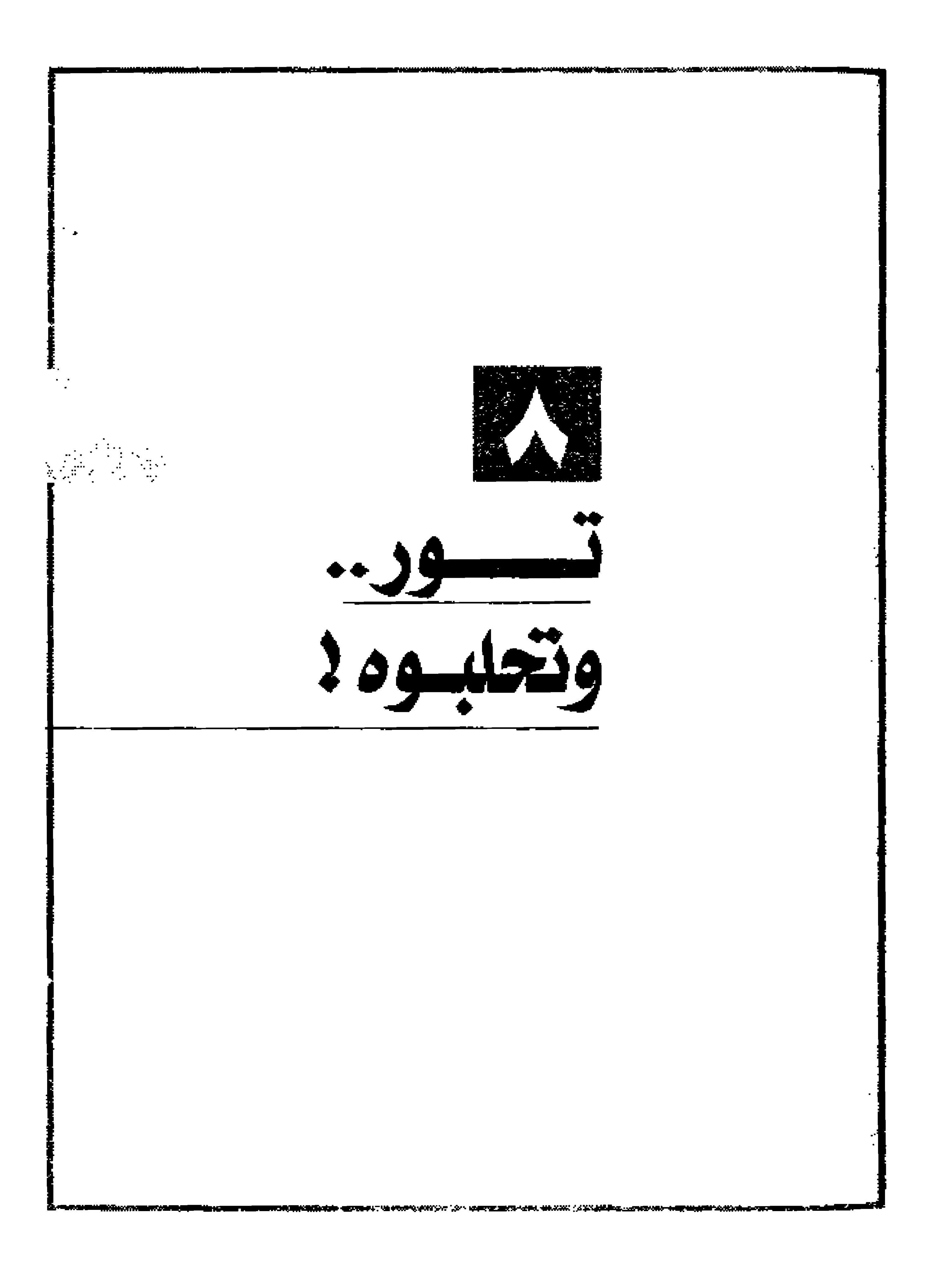
وكلها تنطبق عليهم . فهم كانوا عمالقة فى فترة ، ثم انقلبوا إلى نصابين فى فترة أخرى ، قالت : الحقيقة أن هذه عاداتكم دائما ، تكرر هذا الموقف المضحك من جانبكم فى أكثر من مناسبة وأكثر من حادث ، حتى الآن لاتزال كسرة ١٩٦٧ توصف بنكسة وأحيانا توصف بالهزيمة . فهل هى هزيمة أم نكسة ؟ هل تستطيع أن تحدد ؟ الحقيقة أن حرب ١٩٧٣ أجابت عن السؤال وأكدت أن معركة ١٩٦٧ كانت نكسة ، لأن النكسات يسهل الخلاص منها والعودة إلى تمام العافية ، وهذا هو ما حدث بالضبط وفى أوائل الستينيات أعلنتم الاشتراكية ورفعتم علمها ثم ألقيتم القبض على جميع الاشتراكيين والقيتموهم فى السجن ، ونفذ الاشتراكية مجموعة من الموظفين لا يعرفون الفرق بين الاشتراكية والملوخية . وفى السبعينيات رفع الرئيس السادات راية الديمقراطية ، ثم وصفها بأنها ديمقراطية لها اظافر وأنياب ، وفى بداية الثمانينيات حشر كل المعارضين فى السجن ، وهدد النبوى إسماعيل بمطاردة المعارضين بالمدفع الرشاش فى الشارع . وهذا الموقف المزدوج ليس من طبيعة الحكومات فقط ولكنها صفة أو عاهة بالنسبة للمشتغلين بالسياسة جميعا . كانت لديكم تنظيمات يسارية ضد الرأسمالية والكومبرادورية ، الآن بعض زعماء هذه التنظيمات يعيش فى أوربا ويؤجر شققا مفروشة للسائحين العرب ، والبعض الآخر يشتغل بهمة وبإخلاص فى خدمة الكومبرادوريين والرأسماليين ، وتناقش الواحد منهم فلا تلمس أى ندم أو أى تبرير ، ولكن كلا منهم مُصر على أنه لايزال يكافح على طريق الاشتراكية والماركسية . ياهوه حدث الشىء نفسه فى صفوف السادة الذين يرفعون شعار (ولن أبالى حين اقتل مسلما على أى

جنب كان فى الله مصرعى) بعض هؤلاء السادة خاضوا معركة حياة أو موت ضد الثورة المصرية ، فلما مات عبد الناصر وخلفه السادات ارتموا فى احضانه واشتركوا فى زفته ودعوا له بالنصر ثم دبروا له مؤامرة لقتله ، كان السادات يناور وكان المسلمون يناورون ، والحقيقة انهم لم يكونوا أعداء لعبد الناصر ولا اصدقاء للسادات ، وهو سلوك غير إسلامى بكل تأكيد ، ولكنه تأكيد على « مشيكم البطال » وسلوككم الذى يشبه نظرة (الأحول) فعين تنظر نحو اليسار وعين تنظر نحو اليمين ، ولكم تقاليع فى المجتمع الحميرى لا يصدقها عقل مثلا .. فى النظام الملكى يموت ملك فيحل محله ملك . من صلبه عادة أو من عائلته احيانا ، وفى النظام الجمهورى يذهب رئيس فيحل محله رئيس آخر ، أحيانا من حزبه وأحيانا من حزب معارض ، وأحيانا رجل آخر من خصومه ، ولكن فى عالمكم الحميرى انقلبت الآية ، عندكم وريث ملكى لم يطق صبرا حتى يموت الرجل ، فقام بانقلاب وخلع الملك وحل محله ، مع أنه لو تحلى بالصبر لبلغ المراد من رب العباد ، وجاء إلى العرش بطريقة طبيعية . وعندكم رؤساء جمهوريات قرروا أن تكون الجمهورية وراثية . فإذا مات الرئيس حل محله ابنه ، وهو اختراع سياسى وبراءة الاختراع من حقكم ، وهذا الاختراع هو إضافة جديد فى القاموس السياسى تجعل النظام الجمهورى أفضل طبعا لمن يشغل المنصب لأن الملك عادة يملك ولا يحكم ، ولكن رئيس الجمهورية يملك ويحكم فإذا ادركته الوفاة بقيت عائلته تعيش فى القصر الجمهورى ، بالرغم من وفاة رئيس الجمهورية ويبقى القصر فى حراسة قوات الجيش ، وتبقى حملة السيارات تحت أمر الأسرة التى خرجت من السلطة ، مع أن مدام تاتشر عندما ذهبت لترفع

استقالتها إلى جلالة الملكة ، ركبت سيارتها الحكومية واتجهت إلى قصر باكنجهام تحيط بها عدة موتوسيكلات تعوى فى الطريق لتفسح لرئيسة الوزراء حتى تصل فى الموعد المحدد ووصلت تاتشر وتقدمت باستقالتها وقضت فترة مع الملكة فى جو من الود والمجاملة . وعندما خرجت من القصر وجدت سيارتها الخاصة فى انتظارها لا سيارت رسمية ولا موتوسيكلات تعوى فى الطريق فمنذ هذه اللحظة لم تعد رئيسة الوزراء ، ولكنها مجرد فرد من افراد الشعب ، وسار بها السائق الخصوصى ، يقف عند الإشارات ويهجم عليها الصبية الذين يحترفون تنظيف زجاج السيارات قلة أصل يمكن ، عدم وفاء يمكن ولكنه أفضل من موقف الهبل الأزلى الذى تتخذونه فى مثل هذه الحالات . أعرف وزيرا عربيا فى العالم الحميرى استقال من منصبه واتخذ مكتبا خاصا ، وأخذ معه جميع أفراد مكتبه وكان كبيرهم بدرجة وكيل وزارة والآخرون بدرجة مدير عام وكان عددهم حوالى عشرة موظفين ،وقضوا اكثر من ثلاث سنوات يديرون مكتب الوزير المستقيل ولكنهم يتقاضون مرتباتهم من خزانة الوزارة التى كان يشغلها ليس هذا فقط ولكن الوزير المستقيل أخذ معه اسطول السيارات الحكومى الذى كان مخصصا للوزارة وظل معه حتى النهاية ، السيارات والسائقون وحتى البنزين كان يصرفه ببطاقات حكومية . أعرف أيضا رئيس وزارة حميرى عندما ترك منصبه أخذ معه خمس سيارات بالسائقين وظلوا معه حتى توفاه الله ، لم تعد الوظائف مهنة ، ولكنها أصبحت جزءا من الميراث وأصبحت أرباحا من شركة يسهم فيها الموظف فيأخذ منها نصيبه سواء أكان يشغلها أم كان بعيدا عنها . أعرف مسئولا فى بلد حميرى كان يحرسه موكب

من الحراس يبلغ ٨ أفراد ، وزيادة فى المنجهة والبغددة كان الحرس يلازمه حتى فى حمام السباحة وحتى فى حجرات الاستحمام بالدش وبالرغم من احتجاجات أعضاء النادى فقد رفض المسئول إبعاد حراسه وقال للمعترضين يعنى لما حد يعتدى علىّ تبقوا انتم تنفعونى ؟ وخرج من منصبه منذ سنوات طويلة ، ويمشى وحده الآن ، يجلس على القهوة ويرتاد الشواطئ ويتردد على المطاعم ، ولم يعتد عليه إنسان ولا فكر أحد فى ذلك أعرف أيضا مسئولا كبيرا فى بلد حميرى غنى وصغير ، عندما خلعوه من السلطة اكتشفوا أن كل ميزانية البلد الغنى فى البنوك باسمه ، مليارات كثيرة هى كل ثروة البلد كانت فى رصيد باسم المسئول الكبير ، ودخلت الحكومة مع الحاكم السابق فى مفاوضات شاقة وطويلة لكى يرد للحكومة جزءا من هذه الأموال . فى بلاد الحمير لا توجد حواجز بين المال العام والمال الخاص ، لا فرق بين خزانة الحكومة وجيب الحاكم ، البساط أحمدى والخطوة بينى وبين حبيبى براح وإن لاجاكم حبيبى سلمولى عليه . لزمت البنت الصمت ثم قالت : هل تريد أدلة جديدة تثبت حموريتكم وسوء إدارتكم وفساد سلوككم . قلت للبنت الخواجاية : أنت تعرفين شيئا وغابت عنك أشياء كما قال الشاعر ، فنحن مثلا انفقنا على البنية التحتية ألوف المليارات من الدولارات ، هل رأيت أبو ظبي ودبى والشارقة مثلا ؟ هل شاهدت جدة والرياض والمدينة المنورة وغيرها من مدن الجزيرة العربية ؟ هل سافرت إلى سلطنة عمان ؟ هل قمت بزيارة البحرين ؟ .هذه المنطقة كانت صحراء ورمالا وخرائب ينعق فيها البوم والغربان ، ولكننا نجحنا فى تحويل الخرائب إلى حدائق وجنان ، وطاردنا الثعابين والعقارب والعناكب ، وحلت

محلها النافورات وناطحات السحاب ، واشعلنا الحرائق في أوكار الجهل واقمنا على اطلالها الجامعات والمعاهد . والطريق مثلا من أبو ظبي إلى العين أكثر جمالا من الطريق من لندن إلى برايتون ، هل تصدقين يا خواجاية أن أبو ظبي أكثر اخضرارا من تونس الخضراء ؟ قالت البنت الخواجاية أم دماغ ناشف : قد يكون كل ما ذكرته صحيحا ، ولكن الحضارة الحقيقية ليست منازل وفنادق وملاعب وناطحات سحاب . الحضارة سلوك وتناول وجهات نظر في الحياة وفي كل النواحي التي تهم الناس . وهي قصة طويلة تحتاج إلى مزيد من الوقت والجهد ... والنقاش معك اصابني بالإجهاد وبالصداع . ومن الواجب أن التزم الراحة الآن وأنام بعض الوقت ، فإلى الصباح يا حماري الصغير لنعاود الحوار ..



٨

تور..
وتحلبوه!

قلت للبنت الخـواجـاية : منذ عـدة أسـابيع وأنت تسردين على مسامعنا حيثيات كثيرة لإثبات حموريتنا ، أليست لنا حسنة واحدة ؟ وهل نحن فى نظرك مجرد عاهات لا شفاء منها ؟ ردت البنت الخواجاية : بالعكس بل لكم حسنات وتاريخ باهر ، والشىء الذى يغيظنى حقا ، أنكم تجاهلتم تاريخكم كله ، ودفنتم حسناتكم فى قبور مجهولة ، وكان بودى أن أسرد على مسامعكم قائمة بحسناتكم ، ولكن قائمة سيئاتكم أطول من الشريط الحدودى بينكم وبين إسرائيل .

وبعد فترة قصيرة قالت البنت الخواجاية : هل تريدون أدلة أخرى تثبت حموريتكم ؟ خذ عندك هذا الفصيل السياسى فى بلادكم الذى تطلقون عليه وصف الجماعات الإسلامية المتطرفة ، وهو وصف خاطىء بالطبع لأن الإسلام دين سماوى وليس فيه تطرف ، وهو إما أن يكون إسلاما أو لا يكون ، وهناك نموذج للدين الإسلامى من يقلده فهو المسلم النموذج ، هذا النموذج يتجسد فى سيدنا محمد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى جاءنا بالرسالة . وأعظم شىء فى سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه كان بشرا « لا تعظمونى كما كان يفعل الأعاجم بملوكهم ، فما أنا إلا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » وعندما تأتى إليه شاعرة العرب الخنساء ، وبعد أن

أعلنت إسلامها ، اعتدل رسول الله وقال « أنشدينا شعرك يا خنساء» فتنظر إليه الخنساء بدهشة وتصرخ متعجبة : أنت يا رسول الله ؟» كانت تريد أن تقول له « أنت الذى تطلب الشعر يا رسول الله ؟ وقد أدان القرآن الشعراء وأدان الذين يتبعونهم ووصفهم بالغاوين » وينظر إليها رسول الله نظرة حانية ويقول لها : أما أنت يا خنساء فشئ آخر . هذا هو نبى الله ورسوله ، لا يمانع أن يستمع إلى الشعر إذا كان من شعر الخنساء التى اعتنقت الإسلام والتحقت بصفوف المؤمنين . وإذا كان هذا هو سلوك نبى الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، فكيف نصف هذه الجماعات المتعصبة والمتشنجة التى تزعم أنها تحتكر الحقيقة ؟ وتدرك على وجه التحديد ما هو الحرام وما هو الحلال ، وكل من يخالفها كافر ، قتله حلال ودمه مباح ، ومن يقتله يدخل الجنة وعلى رأسه مطواة قرن غزال !

مثل هؤلاء لا يمكن أن يكونوا مسلمين ، ولكن يمكن وصفهم بالخوارج . ومن هم الخوارج ؟ .. إنهم مسلمون حقيقيون وأنقياء ، ولكنهم - للأسف الشديد - أخطأوا التحليل . لقد كانوا جنودا فى جيش على بن أبى طالب ، ومن هو على بن أبى طالب ؟ ابن عم رسول الله ، وأول من أسلم من الصبية ، بطل يوم الهجرة الذى نام فى فراش الرسول (ص) معرضا نفسه للموت ليهيئ الفرصة للرسول (ص) لكى يبدأ رحلة الهجرة التى أمره الله بها ، وهو بطل يوم بدر وأعلم صحابة رسول الله بشرع الله ، وأول من تولى منصب القضاء فى الإسلام وبالإسلام .

من يجرؤ من المسلمين على المزايدة على سيدنا على ؟ من يزعم أنه أعلم بالإسلام من سيدنا على ؟ ولكن هناك من جرؤ ، وهناك من زعم فى معركة صفين ، عندما لجأ معاوية بن أبى سفيان إلى خدعته

المشهورة برفع المصاحف على أسنة الرماح . ووافق سيدنا « على » على التحكيم بينه وبين معاوية . رفض الخوارج وشقوا عصا الطاعة واعتبروا سيدنا عليا مثل معاوية وقرروا خلعهما معا وقتلهما معا ورفعوا شعار الحاكمية لله ، أى لا حاكم إلا الله . واضطر سيدنا على إلى محاربتهم ، وأوقع فى صفوفهم مقتلة عظيمة ، وخسر الإسلام ألوفا من أبنائه العظام ، فمهما يكن الأمر فالخوارج كانوا من جنود سيدنا على ، أى أنهم كانوا من خيرة جنود الإسلام ، ولكن قاتل الله الحماقة التى أوردتهم موارد الهلاك ، الحماقة أدت بهم إلى اعتبار أنهم وحدهم على حق والآخرون على باطل ، خرجوا على طاعة على مع أنه ولى الأمر وطاعته واجبة وملزمة ، كان يمكن أن يجرى التفاهم بين الجميع بالحوار ، ولكن الحماقة جعلتهم يكفرون سيدنا على ، ومَنْ مِنَ المسلمين يستحق لقب مؤمن بعد سيدنا على ؟ ولكن تقول لمين ؟ وتعيد لمين ؟ ومنذ ذلك الحين تم شق الصف الإسلامى وتوغلت الفتنة فى صفوف المسلمين . هذه الجماعات المسلحة فى بلاد المسلمين هم أحفاد الخوارج ، فإما تصبح مع رأيها أو تصبح من الكفار . جماعات الخوارج إذا اختلفت معك فأنت كافر لا تستحق الحياة .

لدينا عدة أمثلة تثبت يقينا أن الجماعات المتطرفة هم أحفاد الخوارج ، أكبر قيادة فى أكبر تنظيم إسلامى هو أكبر إرهابى فى القرن العشرين - من واقع أوراق النيابة العامة ، والذى تولى التحقيق فى القضية رجل من رجال القضاء لا غبار عليه وهو السيد عصام حسونة الذى تولى منصب وزير العدل فى آخر عهد عبد الناصر - عندما اختلف مع حكومة السعديين أنشأ وقاد تنظيما سريا هدفه ليس قتل من اختلف معك كما يتبادر إلى الذهن ، ولكن هدفه الذى

أثبته التحقيق هو تدمير مصر نفسها عن طريق تدمير القناطر الخيرية لكي تغرق الدلتا كلها بقراها وسكانها . ولنفرض أن رئيس الوزراء كافر كما حكم السيد الإرهابي فما ذنب الفلاحين في ريف مصر ؟ وماذنب سكان مصر كلها إذا غرقت مزارع الدلتا وهي سلة غذاء المصريين ؟ وتفاصيل القضية إياها مثبتة في كتاب أصدره المستشار عصام حسونة وزير العدل السابق ، وهو معروض في المكتبات ، والمستشار حسونة لم يكن قاضيا عسكريا مثل اللواء الدجوي ، ولم يكن من ضباط السجون مثل حمزة البسيوني ، ولكنه رجل قانون وسيرته ظلت عطرة بين القضاة حتى يومنا هذا .

والمثل الآخر بطله تنظيم الخوارج في الجزائر ، خاضوا انتخابات وحصلوا على الأغلبية فيها ، ولكن حكومة الجزائر قامت بإلغاء الجولة الثانية من الانتخابات ، ورفض العسكر التخلي عن السلطة . حتى هذه اللحظة لم تكن هذه الجماعات قد تحولت إلى خوارج ، ولكن عندما شعروا بأنهم أبعدوا عن السلطة بفعل فاعل ، تحولوا إلى خوارج وانقلبوا في السلطة ولكن ضد الجزائر نفسها .

وفقد شعب الجزائر المسلم أكثر من مليون شهيد ذبحهم الخوارج بدون رحمة ، ذبحوا الأطفال وذبحوا الشيوخ وذبحوا النساء ، لم يستثنوا أحدا ولم يرحموا أحدا . وإذا كانت الجزائر قد سقط من بين شعبهاأكثر من مليون في حرب الخوارج ، فمصر فقدت عدة ألوف ، والمغرب خسر نفس العدد ، وتونس حدثت فيها مقتلة . وليبيا حدث فيها نفس الشيء ، وسوريا والعراق خسائرهما لا يمكن إحصاؤها بشكل رسمي . وإذا كنا لا ننكر على جماعات الخوارج صدق إسلامهم ، فالحق يقال إن شجاعتهم لا تحتاج إلى دليل . والكارثة أنهم جميعا لا يكتمون عداءهم للصهاينة ولا يخفون شوقهم لقتال أبناء

صهيون ، ولكن الذى حدث بالرغم من إيمانهم وشجاعتهم وتصميمهم على قتال بنى إسرائيل المعتدين المغتصبين ، أنهم أداروا ظهورهم للعدو واشتبكوا فى معركة الهول ضد أفراد عائلاتهم وأبناء عمومتهم ، هل سمعتم شيئا من هذا حدث من قبل ؟ هل شاهدتم فى أى وقت رجلا شمَّر عن سواعده وأشهر سلاحه ليخوض معركة الحياة والموت ضد عدوه ، ثم فجأة ... استدار وأعطى ظهره لعدوه وراح يطلق النار عشوائيا على أبنائه وأشقائه ؟!

ما هو الوصف الذى يمكن أن تطلقوه على من يقوم بعمل مثل هذا ؟ لا شك أن الذين يمارسون مثل هذه الأعمال هم « مجانين » الغريب فى الأمر أنهم كلما تورطوا فى قتال أهلهم تمسكوا بعنادهم وأصروا على موقفهم وزعموا بأن سلوكهم هو الأصح !

ولو سألتهم : لماذا كل هذه الضراوة فى القتال مع الأهل وليس مع الأعداء ؟

أجابوك : لأن قتل الأهل هو الطريق إلى تحقيق النصر على الأعداء إنها نفس النظرية الخنفشارية التى طبقتها إيران بعد الثورة عندما زعمت أن الطريق إلى تل أبيب يمر عبر بغداد ، والنظرية نفسها اقتبستها بغداد عندما غزت الكويت وزعمت أن الطريق إلى حيفا ويافا يمر عبر الكويت . مع أن هذه الجماعات لو تجمعت واحتشدت وهجمت على الأعداء ، منذ عام ١٩٥٤ مثلا فبالتأكيد كانوا سيحققون النصر على الأعداء ، وهم قادرون على ذلك بالإيمان الذى يعمر قلوبهم وبالشجاعة التى يتحلون بها ، ولكنهم - للأسف الشديد - يستخدمون كل هذه الصفات فى الاتجاه الخاطىء .

صحيح قد تكون النظم الموجودة غير مؤهلة وبعضها غير صالح والبعض الآخر فاسد . ولكن هل تستحق المسألة كل هذا الخراب والدمار ؟

إن هذا الموقف وحده يثبت أنكم من سلالة بنى حمير ، ولو أنكم احتشدتم وقضيتم على العدو لصلحت أحوالكم جميعا . ثم إنكم تقتلون الأهل والأقارب ، تقتلون الأطفال الرضع والصبية الصغار... ما ذنب هؤلاء ؟ وما ذنب المرأة الدردبيس والشيخ العاجز ؟

إن الشرع حرم قتل أطفال الأعداء ... فما بالك بأطفالكم أنتم ؟

قلت للبنت الخواجاية :

أحيانا يخطىء المؤمن .. وخطأ المؤمن مغفور له . وردت البنت الخواجاية :

المؤمن مغفور له إذا أخطأ مرة .. إذا أخطأ مرتين .. إذا أخطأ ثلاث مرات ، ولكن إذا أخطأ على طول الخط ، إذا كانت مسيرته هى قصة خطأ مستمرة .. فلا أظن أنه مغفور له ... قلت للبنت الخواجاية : ألا تلاحظين أن المسائل أصبحت أفضل فى الوقت الحاضر ، وأن الهدوء حل محل الاضطراب الذى ساد بعض الوقت .

قالت : نعم ... قد يكون هذا صحيحا ، ولكن « الهاف تايم » الذى يفصل بين شوطى المباراة .... لا يعنى أن المباراة انتهت ... وأعتقد أن الذى يحدث الآن هو مجرد « هاف تايم » فى مباراة ثقيلة الدم ولا معنى لها على الإطلاق . قلت للبنت الخواجاية : هل عندك معلومات ؟ ردت باستنكار : دعكم من هذا الكلام الفارغ ، فأنتم وحدكم دون خلق الله جميعا تتصورون أن وراء كل حادث يحدث لكم تكمن وراءه مؤامرة ، وكل رأى ينتقد أوضاعكم هو ضرب من ضروب الخيانة ، كل واحد خواجا أو واحدة خواجاية لابد أن تكون هناك رابطة تربط بينهما وبين أجهزة المخابرات الدولية وأجهزة المباحث .. وأنا يا حمارى لا علاقة لى بأجهزة مخابرات أجنبية ولا محلية ، كل ما فى

الأمر أننا نشاهد ونتعجب ... نشاهد ونحزن ، ثم أنت الذى سألتنى وكان لابد أن أجيبك وطبيعى أن أجيبك بالصدق ، فهى مسئولية وعلىّ أن أؤديها . ثم دعنى أقول لك شيئا : هل سمعت تفاصيل الكوسة التى وقعت أخيرا فى لبنان ؟

فى الوقت الذى يقف فيه حزب الله اللبنانى فى جنوب لبنان يمارس نضاله ضد الجيش الإسرائيلى وعملائه من أفراد جيش الجنرال اللبنانى العميل ، فى هذا الوقت بالذات ظهر تنظيم آخر يدعى أنه إسلامى ، والبعض يطلق عليه وصف الأحباش ، ظهر هذا التنظيم كمحارب نشيط ضد الجيش اللبنانى - خد بالك من المفارقة - وليس ضد الجيش الإسرائيلى ، والحرب التى يخوضها فى الشمال اللبنانى وليس فى الجنوب . وأرجو أن يقوم أحدكم بشرح هذا الذى يحدث الآن فى الشمال اللبنانى ، هذا التنظيم المحارب ما هو الهدف من حربه ؟ إذا كان الهدف هو تكدير العدو وإنزال الخسائر بأفراده وتحصيناته، فقد أخطأ التنظيم جغرافيا لأن العدو فى الجنوب وليس فى الشمال . ثم لماذا يوجه بنادقه الآن بالذات إلى الجيش اللبنانى ؟ وما هو الجيش النموذجى الذى يعبر عن وحدة هذه الأمة ، لأنه يضم بين صفوفه المسلم الشيعى والمسلم السنى والمسيحى الكاثوليكى والمسيحى البروتستانتى ، ويضم إلى جانب هؤلاء كل أبناء المذاهب والطوائف . فلماذا الحرب ضد هذا الجيش الآن ؟ وما هى الفائدة من سقوط عدة شهداء من أبناء التنظيم وعدد آخر من أفراد الجيش اللبنانى ؟ أليس من الأفضل لو أن الجميع سقطوا شهداء فى معركة مع العدو ؟ وبعد ذلك تتهمون إسرائيل بأنها تتآمر عليكم وتضع الفخاخ فى طريقكم .

هل صحيح أن إسرائيل هى مصدر الخطر عليكم ؟ أم أنكم أنتم

مـصــدر الخطر على أنفسكم ؟ والســؤال الآن : هل تصـنعــون ذلك بإرادتكم ؟ أم أنكم تقومون بحركات لا إرادية نتيجة هزائمكم المتكررة التى أصابتكم بالعمى الحيسى ؟ هل تصدقنى إذا قلت لكم : إن ما يحدث منكم الآن حدث لملاكم شهير أحدثت ضربات خصمه فى رأسه نوعا من الاضطراب فى حاسة الإبصار ، فراح يضرب بقبضته فى الهواء ، ثم نزل بكل قوته على أحد الأعمدة الحديدية التى تربط حبال الحلقة ، وكانت النتيجة أن قبضة يده تحطمت وخسر المعركة واعتزل اللكم بقية أيام حياته ، ومات فى النهاية ممرورا ومحسورا .. وضاع فى الكازوزة يا ولداه .

هل تريد حيثيات أخرى ؟ إذا كنت تريد مزيدا من الحيثيات فما أكثرها فى قائمة الاتهامات التى هى أطول من الشريط الحدودى بينكم وبين العدو .

هل تعرف أصدق تشخيص لحالتكم ؟ إنه المثل الشعبى الشائع : نقول تور .. يقولوا احلبوه !!





٩

ولكن هناك فرقا !

قالت البنت الخواجاية وهى شامتة فى العبد لله : هل تريد أدلة أخرى على حموريتكم التى لم يكن لها مثيل في الماضى ولا فى الحاضر ، ولن يكون لها مثيل في المستقبل ؟ قلت لها : يا خواجاية .. أنت تتصيدين الأخطاء لكى تصدرى حكما بالإدانة علينا ، مع أننا شأننا شأن بقية عباد الله لا فرق ، كما أننا ... قاطعتنى البنت الخواجاية وقالت صائحة : فضك من هذه الأكلشيهات التى تجيدون صكها وترديدها . ودعني أقول رأيي ولا تقاطعنى ، ثم من حقك أن تتكلم كما تشاء بعد أن أنتهي من سرد وجهة نظرى أرجوك .

قلت : هاتى ما عندك يا خواجاية : قالت البنت : أنتم تمارسون الرياضة بالطبع ، قلت طبعا .. وعندنا فريق وطنى حصل على كأس أفريقيا وفريق وطنى آخر حصل على كأس آسيا . واشترك أكثر من ٦ فرق فى مسابقات كأس العالم . وبعض فرقنا حققت انتصارات على منتخبات أوربية من بلادكم . قالت البنت : أنا أعرف هذا وأعرف ما هو أكثر . ولكن هذا لا يعنى أنكم تمارسون الرياضة ، والحقيقة أنكم تشاركون فى بعض المباريات الرياضية لأن ممارسة الرياضة لها شروط ، أول شرط أن تكون مستعدا للفوز والهزيمة ، والشرط الثانى أن تنظر للفريق الآخر كمنافس وليس كعدو . فإذا فاز صافحته

بود ، وإذا فزت عليه صافحته بحُب . ولكن انظر حولك لما يجرى عندكم في الملاعب .. آخر وقائع ممارستكم الرياضية فريق من عندكم كان يتبارى مع فريق من عندكم برضه ، وفجأة انقلب الملعب إلى ساحة حرب . ضرب « بالشلاليت » وضرب « بالبواني » وجرحى نقلوا إلى المستشفيات ، مع أن الفرقتين من جنس واحد والجميع عرب نشامى . بعد هذه المباراة بقليل دارت مباراة أخرى فى « الڤولي بول » بين فرقتين والجميع من جنس واحد عرب بواسل ، وعقب انتهاء المباراة قام الفريق المهزوم بتحقيق انتصار آخر فى المصارعة والكاراتيه والملاكمة .. قلت للبنت الخواجاية : ألم أقل لك إنك تتصيدين الأخطاء لنا ، ذاكرتك اتسعت لتفاصيل هاتين المباراتين ولكنك تعمدت إخفاء ما حدث منكم وفي بلد اسمها بلچيكا ، وكانت المباراة بين فريقين أحدهما إنجليزى والآخر طليانى ، وبينما كانت المباراة شغالة نشبت معركة بين المشجعين ، واستعملوا في المعركة حديد الملعب وحطام الكراسي وقطع أخشاب نزعوها من الأبواب المحطمة ، وهدأت المعركة بعد نصف ساعة ، واستأنفوا اللعب بعدها ، ثم أذاعوا تفاصيل المعركة بعد المباراة فإذا بحصيلتها ٥٠ قتيلا طليانيا وعدة جرحى من الانجليز . وبعدها أصدر الاتحاد الأوربى قرارا بحرمان الفرق الانجليزية من اللعب فى المسابقات الأوربية . عينك تتسع لرؤية القذى فى عيوننا ، ولكن عينك لا ترى الخشب فى عيون أهل بلدك . قالت البنت دون أن يبدو عليها الإحراج أو الكسوف : ما ذكرته صحيح ، ولكن هناك فرقا . قلت : وما هو الفرق يا ست البنات ؟ قالت : هذه مباراة واحدة وليس لها مثيل ، لم يحدث شىء مشابه قبلها ولم يحدث مثلها بعد ذلك . ولكن عندكم أغلب مبارياتكم من نفس النوع . ذات نهار دارت معركة على أرض القاهرة

وكانت نتيجة المباراة يتوقف عليها وصول أحد الفريقين إلى كأس العالم . وانتهت المباراة بفوز فريق على آخر بهدف مقابل لا شيء . المفروض في هذه الحالة .. المباراة انتهت ويا دار ما دخلك شر . ولكن الذي حدث بالفعل لا يصدقه عقل . اعتدى كابتن الفريق المهزوم على كابتن الفريق الذي فاز ، ثم خرج من الملعب واعتدى على المتفرجين وقلع عين متفرج كان يمتهن الطب وعاش عمره كله بعين واحدة ، وعاش عمره بعد ذلك لا يشاهد مباريات ، لا في الملعب ولا في التليفزيون . قلت للبنت الخواجاية دي : وفيها إيه ، قلع عين واحد وكسر ذراع واحد ، وإحداث كسور ورضوض في عشرة أشخاص . كل هذه الحوادث لا تقارن بقتل ٥٠ واحد في مباراة واحدة . قالت الخواجاية : العبرة ليست في العدد ، ولكن في تكرار الحوادث ، فتكرارها يثبت أنكم لا تتعلمون ولا تستفيدون ، كان لديكم كاتب عظيم اسمه أحمد بهاء الدين ، كتب مرة يقول : السمك هو المخلوق الوحيد الذي بلا ذاكرة ، تلقى له بالسنارة وفيها الطعم فيتلقفها في فمه ، تلقيه في الماء وتلقى له بالسنارة مرة أخرى فيتلقفها في فمه ، ولو كررت التجربة ألف مرة فستكون النتيجة واحدة فهل أنتم سمك أم بشر ؟ هل تعرف منطقة الخليج ؟ قلت : نعم .. أعرفها جيدا . قالت : عندهم دورة كروية كل سنتين اسمها كأس الخليج . وفي البداية كانت المنافسة بين الكويت والعراق ، ثم دخلت السعودية في المنافسة بعد ذلك ثم تطورت الأمور بعد ذلك فصارت قطر منافسا عنيدا ، وصارت الإمارات منافسا صعبا ، والآن صار الجميع منافسين وعلى قدم المساواة . وأصبح فريق سلطنة عمان من الفرق التي يعمل لها ألف حساب . قلت : وفيها إيه دي ، إنه دليل على أننا نتقدم ونتطور . قالت البنت الخواجاية : نعم تتقدمون في الكورة

وتتطورون فى أساليبها وفنونها ، ولكن فى السلوك الرياضى لا ، والرياضة تحولت الآن إلى جزء من الدبلوماسية بين الدول .. والولايات المتحدة والصين كانتا من ألد الأعداء وعندما قررت أمريكا أن تلطف الأجواء وتمد جسرا من المودة للصين أرسلت إلى الصين فريقها الوطنى لتنس الطاولة « البنج بونج » وحتى إيران عندما أرادت أن تثبت أنها لا تعادى الشعب الأمريكي ولكنها تعادى السياسة الأمريكية ، أرسلت فريقها الوطنى لكرة القدم إلى الولايات المتحدة . ولكن خذ عندك ما يحدث فى كأس الخليج .. فى عام ١٩٧٦ وصل إلى المباراة النهائية فريق العراق وفريق الكويت وفازت الكويت على العراق وعاد الفريق الكويتى بكأس الخليج ، فى الحال خرجت الجماهير الكويتية واحتشدت فى الشارع المحاذى للشاطىء وسار الناس فى مظاهرة حاشدة تهتف بسقوط العراق وفريقها ، وتوجهوا جميعا إلى السفارة العراقية ، ولما كانت أعداد المتظاهرين كثيرة فقد خشيت الحكومة الكويتية من العواقب فأنزلت المصفحات وأحاطت بالسفارة العراقية لحمايتها من الجماهير ، منذ هذه الدورة بدأت حرارة المنافسة تتصاعد وتشتد لدرجة أن دول الخليج استعانت بطائرات سلاح الجو لنقل المتفرجين إلى الملاعب ، ويومها كتبت أنت ونشرت فى الكويت أنك لأول مرة فهمت مدى الحكمة باعتماد ميزانيات ضخمة لشراء الطائرات الحربية ، فاقترحت تسهيلا للأمور تدريب المشاهدين على الهبوط بالمظلة لكي يأخذوا أماكنهم خلف الهدف مباشرة . فى اليوم التالى لنشر المقال تلقيت أنت أكثر من مكالمة تليفونية تهددك بالويل والثبور وعظائم الأمور ، هل نسيت ذلك كله ؟! قلت : لم أنس شيئا ولكن هذا الحادث لم يتكرر بعد ذلك . قالت: بالعكس تكرر ولكن على نحو آخر فى المباراة بين الكويت

والعراق التي دارت في العراق وانتهت بفوز الكويت (٣ / ٢) وكانت المباراة في تصفيات آسيا لكأس العالم ، وبعد صفارة النهاية اعتدى أحد كباتن الفريق العراقي على الحكم الأجنبي ورقعه علقة ولا حرامي في مولد . ثم دعك من المباريات الكبرى بين المنتخبات ونراجع معا سجل الأندية المحلية ، فريق يفوز على فريق آخر .. فيها حاجة دي !! ولكن في العصر الحميري فيها حاجات ، آخر حادث وقع كان في القاهرة وبين الأهلي والزمالك . الحكم كان فرنسيا ، أخرج الكارت الأحمر وطرد لاعبا من الزمالك فقامت قيامة لاعبي الزمالك ولم تقعد وألغيت المباراة واستغرق انصراف الناس من الملعب عدة ساعات ، مع أن حكم المباراة هو في وضع القاضي الجالس على المنصة ، فهل تقوم المشاجرات في المحاكم عقب كل حكم يصدره القاضي على متهم . قلت للبنت الخواجاية : وماذا في تلك الحوادث ؟ إن أسوأ مشجعي كورة في العالم من بلادكم وفي كأس العالم الأخيرة حاول المشجعون الانجليز الاعتداء على مشجعي تونس واعتدوا على المشجعين الألمان ، وصور المشجعين الانجليز المشاغبين تتصدر ملاعب أوروبا كلها . وفي أمريكا اللاتينية نشبت حرب طاحنة بين دولتين متجاورتين بعد مباراة كورة حامية ، وكانت حربا بالدبابات والطيارات والمصفحات ومدافع الميدان وطائرات سلاح الجو . فلماذا تتجاهلين هذا كله ولا تتذكرين إلا اعتداء أحد اللعيبة على حكم ، وشغب بعض اللعيبة ضد حكم آخر ومظاهرة سارت في إحدى المدن ولم ينتج عن التظاهر أي جرحى أو قتلى . قالت : نعم أعرف ذلك كله ولكن هناك فرقا .. قلت لها : هل تتفضلين بشرح هذا الفرق ؟ قالت : عندما سقط خمسون مشجعا قتيلا في بلجيكا من بين الطليان وكان المشجعون الانجليز هم الذين مارسوا عمليات الضرب

والقـتل . هل تعلم من الذى سلم المعـتـدين الانجليـز للمـحكمـة البلجيكية ؟! إنهـا الشـرطة البـريطانيـة.. أجـهزة اسكوتلاند يارد هى التى قـامت بالبـحث والتـحرى ومن خـلال الصـور وشـرائط الفـيديو استطاعت أن تجمع الجناة جـميعا وأخذتهم بربطة المعلم وسلمتهم للمـحكمة البلجيكيـة . والحـرب التى قـامت بين الدولتين فى أمـريكا الجنوبيـة من أجل مـباراة كرة قدم انتـهت فعـلا بعـد ثلاثة أيام ، وتم توقيع مـعاهدة صلح بين البلدين ، ودارت بعد ذلك عشـرات المباريات بين الدولتين ولم يحدث فـيهـا مـا يعكر صـفو الأمن ، ولكن فى بلاد الحمير يعتبرون الهزيمة فى الرياضة عارا والفوز فى الرياضة مكسبا تاريخـيا ولا انتصـار العلمين ، وأجـهزة الإعلام عندكم تصب الزيت على النار لكى تزيدها اشـتـعالا فـتعلن دون وجه حق أن الجـمـاهيـر أصيبت بالإحباط نتيجة هزيمة فريقها ، وتعقد الندوات لشـرح أسباب الهزيمة وتوزيع اللوم على بعض الناس ، ولا تعـقـد هذه الندوات فى يوم المباراة أو فى اليوم التالى ولكنها تستمر لمدة شهر ، وأحيانا لعدة شهور ، فإذا كانت المباراة مع دولة أخرى راحت أجهزة الإعلام تعمق مشـاعر العداء ضد الدولة التى فازت ، مع أن الحـادث الذى جرى فى ملعب بلجيكا وراح ضـحيته ٥٠ مشـجـعا طليانيا انتهى بالضبط بعد دفن الموتى ، وقـبلت إيطاليـا اعـتذار انجلترا عندمـا أعلنت تاتشـر فى خطاب علنى ليلة المبـاراة : « إننى هذه الليلة أشـعـر بالعـار لأننى بريطانية » . حـادث مـثل هذا أو أقل منه لو وقع فى بلادكم تسـارع كل دولة بجميع أجـهزتها فى إلقاء اللوم على الدولة الأخرى ، وأنها هى السـبب فى وقـوع هذا الحـادث وأن الاسـتـفـزازات التى صـدرت من مشـجـعى الدولة الأخرى هى التى تسـببت فى هذا الحـادث الخطير ، لا يعترف أحد عندكم أنه مسئول وأنه مـخطىء ولا يعتذر أحد عندكم

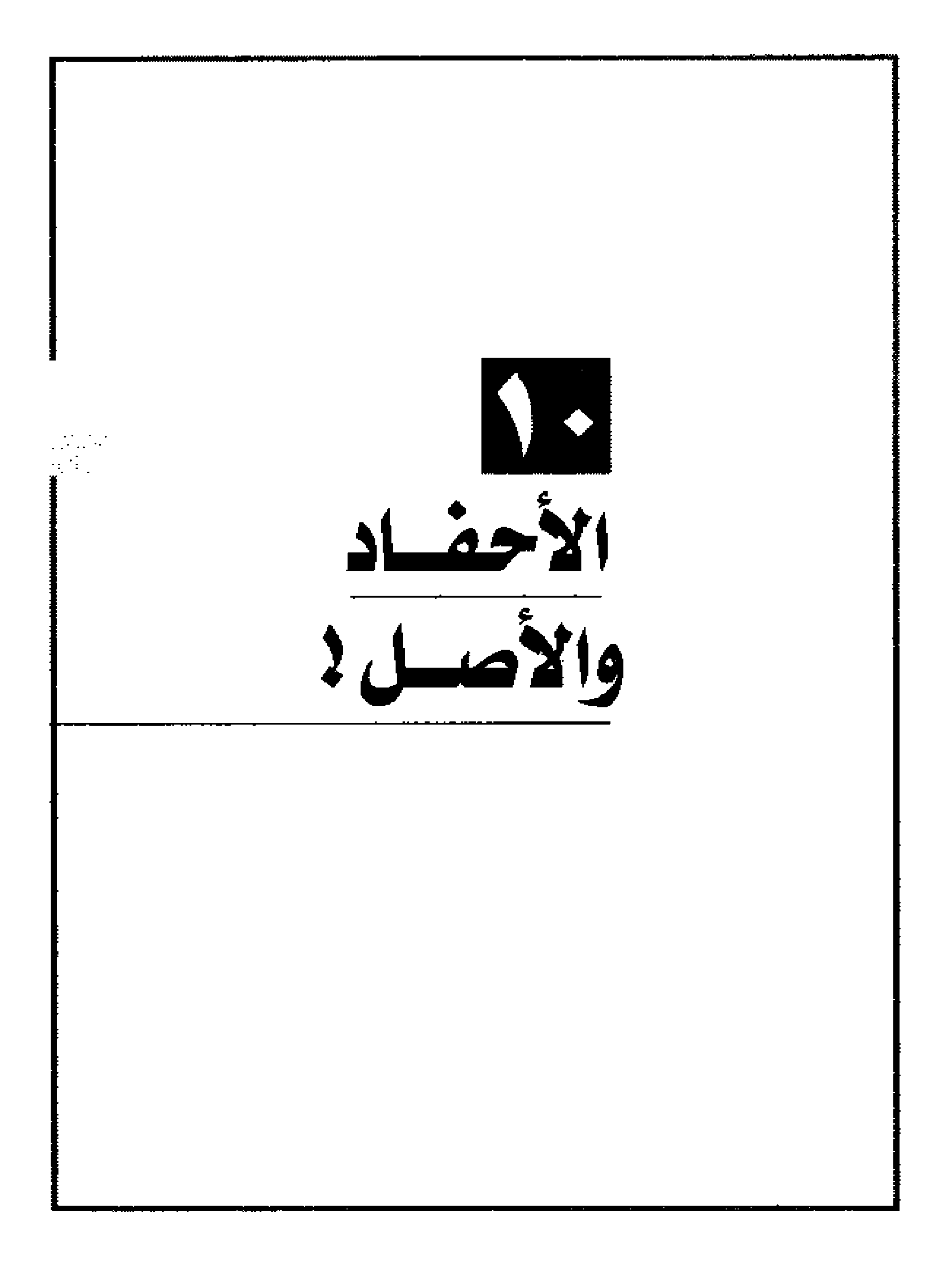
لآخر ، فكل منكم على حق والآخر على باطل . يقولون إن هذه حالة مزمنة عندكم وإن شعراءكم القدامى كانوا بارعين فى المدح والذم وكانوا إذا مدحوا أحدا أسبغوا عليه كل الصفات الحميدة : العلم والحكمة والكرم والشجاعة ، وكانوا إذا ذموا أحدا جعلوه صنوا للكلاب والتيوس والوحش السارح في البرارى ، هذه مسألة ليست لها وجود فى بلادنا . هل قرأت شعرا فى حياتك يمدح زعيما أو وزيرا أو حاكما فى بلادنا . الشعر هو حالة نفسية ولكن عندكم ولزمن طويل كان الشعر وسيلة للرزق . الشاعر يدخل على الخليفة فيصفه بالعادل والكامل والمنتصر وظل الله فى الأرض ويخرج من عنده وقد امتلأت جيوبه بالذهب والفضة . وفى تاريخكم أن أحد الشعراء دخل على أحد الخلفاء فى قصره فى دمشق وبعد أن اسمعه قصائده فى مدحه عاد إلى الصحراء التى جاء منها بقافلة أطول من قطار الشرق ، قافلة تحوى عددا من الإبل وعددا من الخيول وعددا من الجوارى ومعه من النقود ما يكفيه طول العمر ، وقد يكون هذا جائزا فى الشعر أيام زمان ، ولكن هذا السلوك لا يليق فى الرياضة ، فعندما انهزم الفريق الانجليزى من فريق البرازيل فى الدورة الودية التى أقيمت فى لندن منذ عامين قال مدرب الفريق الانجليزى فى ندوة مفتوحة لبعض النقاد : أنتم تهاجمون الفريق الانجليزى لأنه انهزم ولكنكم لا تسألون أنفسكم من أى الفرق تلقى هذه الهزيمة ، لقد انهزمنا من البرازيل بطل العالم ، وهل كنتم تتصورون أننا سنهزم فريق البرازيل ؟! ولكن فى ندواتكم باتحاد العالم الحميرى كل جانب يؤكد أن فريقه كان سيحقق النصر ولو وضعوا سعد مكان سعيد ولو أخروا سيد وقدموا عبد السميع ، الفوز فى يد كل منكم لولا أخطاء فى التشكيل وأخطاء فى التخطيط ولذلك لن تتقدم الرياضة عندكم

أبدا لأنكم لم تتعرفوا على الأسباب الحقيقية للهزيمة فكيف ستحققون النصر؟! حدث منذ أشهر قليلة أن فاز فريق انجليزى يدعى مانشيستر يونايتد على فريق آخر بهدف وحيد وأضاف الفريق إلى رصيده ثلاث نقاط فى مسابقة الدورى العام ، ولكن المدير الفنى للفريق تقدم بطلب إلى اتحاد الكورة طالبا إعادة المباراة من جديد لأن فريقه لا يستحق هذا النصر لأن الكرة كانت فى قدم الفريق المنافس ، ولكن لاعبا أطاح بالكرة خارج الخط لسقوط لاعب على أرض الملعب حتى يتسنى إسعافه وعندما استؤنف اللعب كان على لاعب مانشيستر يونايتد أن يقذف بالكرة من على خط التماس إلى أحد لاعبى الفريق المنافس ولكنه قذفها إلى أحد زملائه الذى سددها مباشرة إلى المرمى وأحرز منها هدفا واعتبر المدير الفنى للفريق الفائز أنها عملية غش لا أكثر ولا أقل وأنه لا يستحق النقاط الثلاث التى حصل عليها . فى بلادكم عندكم لعيبة كانت مواهبهم الحقيقية تتلخص فى خداع الحكام فيسقطون فى منطقة الست ياردات ويحصلون على ضربة جزاء وكان لديكم مذيع شهير يزف البشرى للمشاهدين لأن اللاعب العبقرى حصل على ضربة جزاء مستحقة ، وعندما يعيد المصور اللقطة التليفزيونية لكى يبرر المذيع أنها قانونية ١٠٠٪ يكتشف الجميع أن اللاعب المنافس لم يلمسه ، وعندكم حكام كورة يميلون مع الهواء مع أن حكم الكورة كما قلنا فى حكم قاضى المحكمة . قلت للبنت الخواجاية فى هذه النقطة : بلاش هلفطة وهمبكة فالعبد لله شاهد بطولة كأس العالم التى جرت مبارياتها على ملاعب لندن فى عام ١٩٦٦ وشاهدت المباراة النهائية التى دارت بين ألمانيا وانجلترا التى انهزمت فيها ألمانيا بثلاثة أهداف لهدفين ورأيت حكم المباراة السويسرى يحتسب ضربة جزاء للانجليز ما أنزل الله بها من

سلطان واحتسب هدفا للانجليز من كرة اصطدمت بالعارضة وسقطت على أرض الملعب بينها وبين خط المرمى أكثر من ياردة ، ويومها سلمت ملكة انجلترا الكأس لكابتن انجلترا وهو بالتأكيد لا يستحقه .. ويومها سألت نائب رئيس الاتحاد الدولى : كيف سلمتم الكأس لكابتن انجلترا والفريق الانجليزى لا يستحقه ؟ قال : وماذا كنت تريد منا أن نفعل ؟ نسلم الكأس لكابتن ألمانيا ووسط ١٥٠ ألف مشاهد انجليزى على رأسهم جلالة الملكة . قلت : وهل هذا عدل ؟ قال : اسمع الكورة سياسة كما هى رياضة . قالت البنت الخواجاية : فى كأس العالم نعم يحدث مثل هذا كثيرا ، ولكن فى الكورة المحلية أتحداك أن يحدث شىء مثل هذا فى أى مكان . لأن كأس العالم مسئولية اتحاد الكورة الدولى ، أما الاتحاد المحلى لكل بلد فهو عنوان لمبادىء البلد وسلوكياتها . قلت : ولكن لدينا حكاما محترمين على المستوى الدولى ويعهد إليهم بإدارة مباريات فى غاية الحساسية . قالت : هذا صحيح ولكن عندكم حكاما آخرين يختلفون عن هؤلاء تمام الاختلاف . وإذا كان الحكم السويسرى فى نهائى كأس العالم عام ٦٦ قد غير سير المباراة إكراما لملكة انجلترا ، فعندكم حكام يغيرون سير المباراة إذا كان الفريق يتولى رئاسته رجل أعمال أو واحد من المشاهير أو واحد من أصحاب النفوذ وإذا تحولت الرياضة إلى سبوبة ولقمة عيش ووسيلة للارتزاق فقل على الحركة الرياضية العفاء . قلت للبنت الخواجاية : حديثك يدل دلالة قاطعة على أنك تكرهين بلادنا وتكرهين ناسنا وتبغضين كل عمل نقوم به ، وكما قلت لك أنت تتصيدين الأخطاء وتتعقبين نواحى النقص وأنت كالمحامى الذى يتصيد كل شاردة وواردة لكى يدين الخصم . قالت : أنا لست كذلك وأنت تتصرف معى الآن كبتوع الرياضة عندكم ، أنت لا تريد أن تعترف

لا بأى نقص ولا بأى خطأ وتتصور أننى ضدكم وربما اتهمتنى بأننى عميلة لأحد أجهزة المخابرات الأجنبية أو موفدة من دولة معادية . كنت أتمنى لو استمعت ثم فكرت وحاولت أن تستفيد فأنا لست من أعدائكم بالعكس أنا صديقة لكم عشت زمنا فى بلادكم وأحببت ناسكم وأكلت من طعامكم وشربت من مياهكم وكل ما أرجوه أن تصبحوا أفضل والذى يحزننى أن باستطاعتكم أن تكونوا أفضل بالفعل فأنتم أذكياء ومهرة ، ووراءكم تاريخ حافل ومجيد ، فقط ينقصكم الاستماع إلى مواطن ضعفكم لكى تعالجوا قلة فهمكم ، ولو أنكم فعلتم ما اقترحته عليكم لحكمتم العالم مرة أخرى كما فعلت بعض أجيال أجدادكم من قبل . قلت : ولكنى أشعر بحقد شديد فى رائحة كلامك ولو أننى شعرت بنبرة حب فى حديثك لربما فتحت لك قلبى وعقلى ولربما صنعت ما اقترحته على وربما كنت قد استمعت وفكرت ثم قمت بتنفيذ مقترحاتك ليس كلها ولكن بعضها على الأقل . قالت : لولا أن عندى أملا بأنك يوما ستفتح عقلك وقلبك أنت وقومك تستمع لتوقفت عن الكلام ، فأنا لست من هواة الرغى بسبب وبدون سبب ولكنى أتوسم فيكم - برغم حموريتكم - أنكم يوما ما ستصبحون أفضل وأحسن ، فأنتم ، وبرغم كل شىء ، مرشحون لتصبحوا نماذج تحتذى ومثلا عليا يحبها الناس ويتبعونها ويقلدونها ، خوفى الوحيد أن يتأخر هذا اليوم فلا يكون له وجود حتى تقوم القيامة ولنكف عن الحديث الآن لنواصله فى يوم آخر .





١٠

الأحفـاد والأصـل !؟

فى الصباح استيقظت البنت الخواجاية ، وهى آخر كلضمة ، حاولت التحدث معها فجاء كلامها أشبه بالهلضمة ، قررت عدم الكلام معها طوال اليوم .. ولكنها بعد أكثر من ساعة نطقت فجأة وقالت : ماذا كنت تريد مني ؟ قلت : لا شيء سوى أنني كنت أريد أن أواصل الحديث معك ، قالت وهى تنفخ من الغيظ : وما الفائدة من الكلام معك أو مع أمثالك ؟! لقد قضينا وقتا طويلا نتحدث ، أنا تعبت وأنت لم تستفد شيئا ..

واعتقد الآن أن الكلام معك ومع أمثالك لن يكون له أى فائدة إلا البغبغة والدردشة وقطع أوقات الفراغ ! ضحكت من أعماقى ، وقلت للبنت الخواجاية ، إذن .. لقد انتابك اليأس يا خواجاية وهو دليل على أن وجهة نظرك في أحوالنا كانت نتيجة لحالة مزاجية ، وليست نتيجة لدراسة عميقة وشاملة وعندها رغبة حقيقية للتطوير والتغيير . ردت البنت الخواجاية متهكمة : دا اللى أنت شاطر فيه ، وأقول لك إنه فى أحد أحيائكم المترامية الأطراف على أرض الله كان لديكم شاعر كان اسمه البردونى وصف بنى جنسكم بأنكم ظاهرة صوتية ، وهو وصف صادق بدون شك ، قلت للبنت الخواجاية : إذن .. كيف تفسرين حالة اليأس التى حطت على سيادتك ؟! قالت : كنت دائما أسخر من خرافة

المخلوقات التى هبطت من السماء ، والمزاعم التى ترددت عن الأطباق الطائرة .. ولكنى بعد أن عاشرتكم وعرفتكم وخبرت أحوالكم أصبحت أؤمن بأنكم هبطتم من كوكب آخر يسبح فى الفضاء ! الآن كل الشواهد تقطع بأن أبناء العصر الحميرى الموجودين الآن على ظهر الأرض لا علاقة لهم بالأسلاف ، ولا يمتون بأدنى صلة للأجداد ! قلت : كيف ؟! قالت البنت على الفور : أسلافكم كانوا يتمتعون بصفات كثيرة ، فى مقدمتها الشجاعة والكرم وكانوا يحمون من يستجير بهم ، ويلبون أى نداء استغاثة ، وقد يستشهدون فى سبيل حلفائهم .. كانت هذه صفات الأسلاف الأوائل ، وكانت أيضا صفات الأجداد فى القرون الوسطى ، وشهادات الغرب فى البطل صلاح الدين كلها تؤكد كرم أخلاقه ، لأنه نموذج للبطل الذى يغشى الوغى ويعف عند المغنم .. وحاكم غرناطة العربى وهو الحاكم الذى شهد سقوطها ، والذى رأته أمه يبكى فقالت له : إبك كالنساء ملكا لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال .. هذا الحاكم الذى كان بالرغم من ضعفه لم يتخل عن صفاته العربية الأصيلة ، فقد أرسل إليه عدوه اللدود فرديناند رسالة يطلب منه فيها أن يسمح بعلاج عمه الذى على وشك أن يفقد بصره ، وكانت غرناطة بها أشهر مستشفى للعيون فى العالم .. والرواية التاريخية تقول إن الحاكم العربى سمح لعم فرديناند بالمجىء وسمح له بالعلاج فى مستشفى المدينة ، ولم يخرج منها إلا وقد شفى تماما ، وعادت له قوة إبصاره وكأنه ارتد إلى فترة الشباب ، لم يكن خير أجدادكم للأصدقاء فقط .. ولكن للجميع .. أصدقاء وأعداء . أطلقت ضحكة من أعماقى وقلت للبنت الخواجاية : حقدك علينا جعلك لا تبصرين إلا كل شىء يديننا ولا يشهد فى صالحنا ، ألم تستمعى إلى مطربنا الشهير ، وهو يغنى على أسماع

الدنيا كلها : حنا لليل حنا للخيل ؟! ألم تسمعي نشيدنا الذى يهز القلوب : أمجاد يا عرب أمجاد ؟! هل تدركين المعنى الحقيقى لهذه الكلمات .. حنا لليل وحنا للخيل ، الليل هو رمز السهر والسمر والغناء والموسيقى والجمال ، والخيل هو عنوان الكر والفر والضرب والطعن والنزال .

ابتسمت البنت ابتسامة ماكرة وقالت : الحياة أفعال لا أقول ، وأنتم دون شعوب العالم أفعالكم تختلف كثيرا عن أقوالكم وإذا دققنا النظر فى أفعالكم سنكتشف أن الفارق شديد بين هذا الجيل الذى عاش فى القرن العشرين ولا يزال يمارس الحياة فى القرن الحادى والعشرين ، وهذا الفارق هو الذى يجعلنا نتشكك فى أنكم أحفاد أجدادكم الأوائل ، وسأضرب لك عدة أمثلة بسيطة ولكنها كفيلة بإقناعك بأننى لا ألقى الكلام على عواتقه .. قلت لها : هاتى ما عندك يا خواجاية فأنت من صنف حكام بلاد الخواجات ، تضعون النظريات ثم تبحثون بعد ذلك عن حيثيات تثبت صدقها .. قالت البنت الخواجاية : خذ عندك ، منذ زمن طويل وأنتم ترددون اسطوانة مشروخة تقول إن قضية فلسطين هى قضية العرب المركزية ، وهذا يعنى ببساطة أن كل شىء لفلسطين وكل شىء من أجلها .. قلت : هذا صحيح .. وتضحيات مصر وسوريا والعراق والسعودية وأغلب البلاد العربية تثبت صحة هذا الشعار .. قالت البنت : لن أناقشك فى هذا الأمر ، ولكن تعال نقص بعض الحكايات التى حدثت فى الماضى القريب .. أنت تعرف بالطبع قصة الولد الثورى الرومانسى الذى نشأ وترعرع فى بلاد النور والموسيقى والخيال .. بلاد أمريكا اللاتينية ، هذا الولد الذى اشتهر فى الدنيا كلها باسم « كارلوس » استهوته قضية فلسطين وآمن بها ونذر نفسه لنصرتها ، وقام بأعمال فدائية

من أجلها ، وهي أعمال يصفها البعض بالإرهابية ، ولكنها إرهابية في نظر أعداء فلسطين ، وباعتبار فلسطين هي قضية العرب المركزية يصبح أعداء فلسطين هم أعداء العرب .. وكان الولد الثورى الفدائى يجد نفسه بين العرب ، ويجد دوره في خدمة قضايا العرب ، وكانت الظروف مساعدة والأمور على ما يرام ، كانت الدنيا منقسمة إلى معسكرين ، معسكر فى صف العرب ومعسكر ضدهم .

وكان كارلوس يتنقل بين دنيا العرب ومعسكر حلفائهم ، ثم فجأة وقع الزلزال الذى أطاح بمعسكر أصدقاء العرب ، ولم يعد أمام كارلوس إلا دنيا العرب ، يلجأ إليها وينعم بالحماية والأمن ويعيش بقية حياته ، كما يعيش بقية الناس . واختار كارلوس قطرا عربيا هو السودان ، احتمى برجل هو الترابى وهو من النوع الذى ينطبق عليه المثل الشهير ..

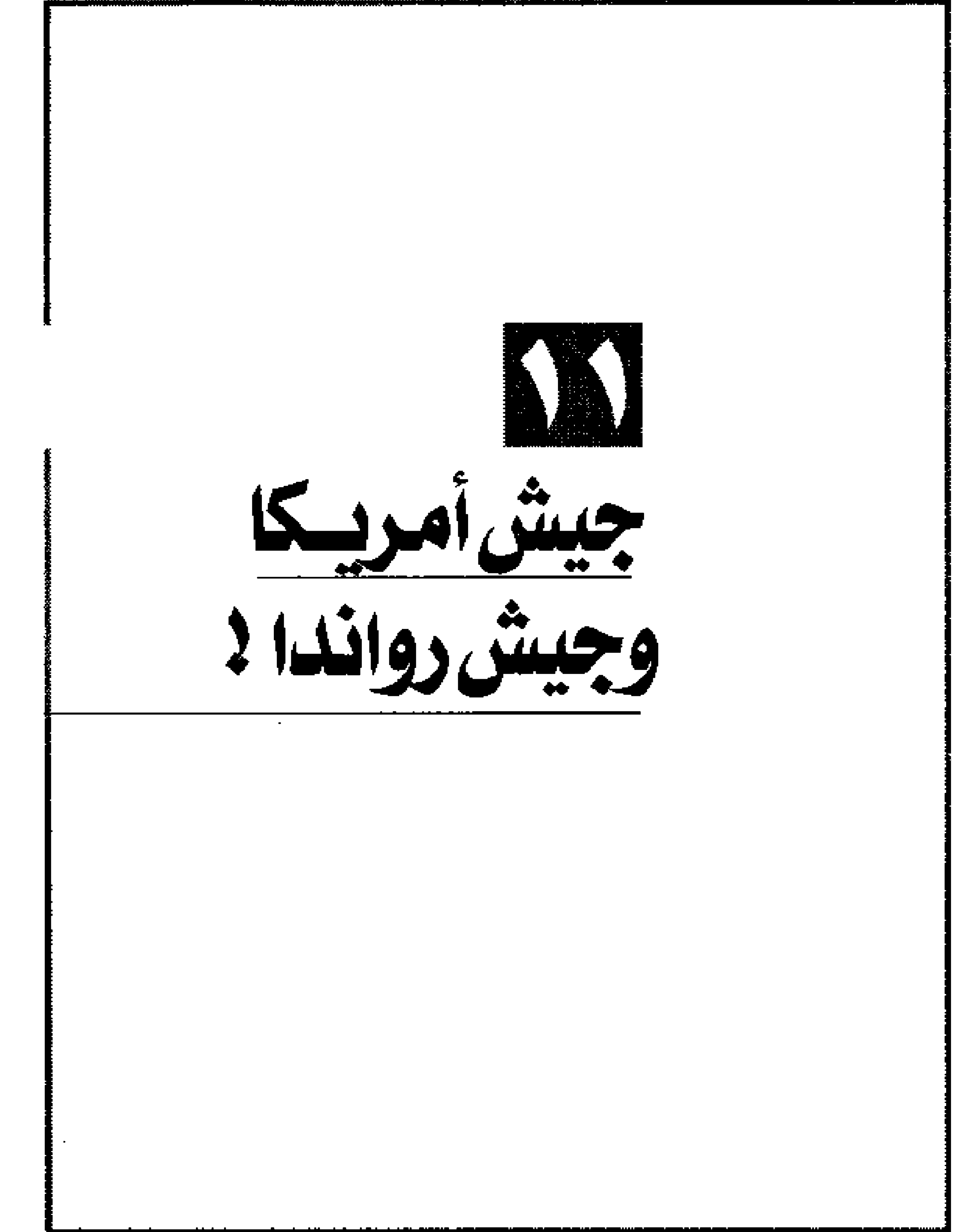
أسمع كلامك أصدقك أشوف أعمالك استغرب !.. وعاش كارلوس مطمئنا فى حماية الترابى ، وكان السر فى اطمئنانه أنه خدم قضية العرب المركزية ، والترابى أحد زعماء الأمة العربية ، فوق كونه زعيما إسلاميا عنده مشروع لإعادة صياغة الكون كله ! وربما فكر كارلوس فى الزواج وانجاب طفل شأنه شأن بقية خلق الله ، ولم لا ؟ أليس إنسانا وربما هو أكثر إنسانية من الجميع ؟! لقد كان فى كل وقت على استعداد للجود بروحه فى سبيل القضية المركزية ، ومعروف أن الجود بالنفس أسمى غايات الجود ، ربما تذوق كارلوس طعم الحياة لأول مرة فى حياته وهو يعيش فى حماية الترابى على شاطىء النيل عند الخرطوم .. وذات صباح شعر بأنه فى حاجة إلى عملية بسيطة ولذلك دخل المستشفى ونام على سريره ، ومد ذراعه ليحقنوه ببنج ، وكانت يد الطبيب خفيفة .. لم يشعر بالحقنة ، وهى تأخذ طريقها فى

عمق لحمه ، وعندما زال تأثير البنج فتح عينيه ليكتشف أنه ليس فى المستشفى .. تصور فى البداية أنهم نقلوه إلى مستشفى آخر ، ولكنه عندما استعاد وعيه كاملا اكتشف أنه فى السجن .. والكارثة الكبرى أنه ليس في سجن عربي ، لأن السجان العربي ومهما يحدث سيظل يذكر دائما أن هذا السجين خدم قضية العرب المركزية فترة طويلة من الزمان .. ولكن المفاجأة الحقيقية أن كارلوس اكتشف فجأة أنه فى سجن أعدى أعدائه الفرنسيين ، وأن حراسه من البوليس الفرنسى ، وهم الذين اتهموه ذات يوم بأنه قتل بعض مفتشى البوليس الفرنساوى فى وجبة واحدة ! لعل جسد كارلوس ارتعش لأول مرة فى حياته .. وأخر مرة أيضا ! فهذا هو المكان الذى كان يتمنى دائما أن يبعد عنه قدر الإمكان ، وهو خلال حياته كلها كان يتصور أن نهايته ستكون برصاصة تخترق قلبه أو رأسه فى معركة ، فهكذا يموت المحاربون عادة .. أما أن يختتم حياته فى زنزانة كئيبة داخل سجن فرنسي ، فهذا هو المستحيل .. وحياة السجون لا تليق بالصقور ، وهو بالتأكيد صقر من نوع نادر ، وهو لا يحط على جيف ولا يأكل الرمم ولا يطيق العيش خلف النوافذ المغلقة والأبواب الموصدة .

ويضاعف من ألمه أن الذى أتى به إلى هنا هم أصدقاؤه الذين قضى حياته كلها فى خدمة قضيتهم المركزية ! وليت المفاجأة توقفت عند هذه النقطة . فى ساحة المحكمة التى نظرت قضية كارلوس .. كان اعتماد هيئة المحكمة على كتاب صدر عن كارلوس بقلم صحافى عربي ، وصف الكاتب نفسه بأنه صديق كارلوس ، ونفى كارلوس أنه يعرفه ونفى كل الوقائع التى ذكرها الصحفى فى كتابه ، ولم تكن الوقائع إياها إلا عمليات إرهابية قال المؤلف إن كارلوس ارتكبها وسقط خلالها عدد من القتلى من بينهم ضباط شرطة ، ورجال

مخابرات ، وجواسيس وسياسيون من مختلف جنسيات أوروبا ودولة إسرائيل .. لعل كارلوس كان يردد فى سجنه المثل العربى الشائع : ما تجيش المصايب إلا من الحبايب ! سكتت البنت لحظات ثم سألتنى فجأة ، هل تشك فى تفاصيل هذه الحكاية ؟! هل تنكر أن كل الوقائع التى ذكرتها قد وقعت بالفعل ؟! وإذا كنت توافقنى .. فهل لديك أى تفسير منطقى لموقف الترابى ؟! لماذا قام بتسليم كارلوس ؟! وما هو الهدف من تسليمه ؟! قلت للبنت الخواجاية : هذا مثل واحد لا غير قمت بإصدار حكمك غير العادل علينا وعلى تاريخنا به .. قالت البنت مستهزئة : تقول مثل واحد ؟! لو أردت أن أروى لك مائة مثل لفعلت .. ولو لديك وقت كاف فأنا على استعداد أن أقص عليك عشرات الحكايات المعروفة .. أما ما خفى .. فهو أعظم ! قلت لها : الوقت متوافر والحمد لله ، والعبد لله مستعد للجلوس معك حتى نهاية القرن الحادى والعشرين ، قالت البنت الخواجاية ساخرة : لست مستعدة للبقاء معك كل هذا الوقت .. ولكن ما دمت مستعدا للاستماع ، فيكفينى عدة أشهر فقط ، وأعتقد أن ما سأحكيه سيقنعك .. أما إذا بقيت على عنادك ، فسأختفى من حياتك .. ولن ترى وجهى بعد ذلك !





١١

جيش أمريكا وجيش رواندا !

قلت للبنت الخواجاية : أنت حاقدة علينا ، وتنتهزين فرصة حوادث فردية وتؤسسين عليها نظريات خنفشارية لا أصل لها ولا فصل وتتهمين بها كل قبائل بني حمير ، مع أن مرتكبيها يكونون عادة من بني حمير صحيح ، ولكن من الظلم أن تنسب عملا فرديا لقبيلة يبلغ أفرادها عدة مئات من الملايين ، ومع ذلك فأنت تفعلين ذلك دون أي شعور بالذنب أو حتى بالمبالغة ، أرعشت البنت الخواجاية حاجبيها وقالت : تقول «عمل فردى » ؟! قلت : نعم .. الحادث الذى ذكرته ، وهو حادث كارلوس .. حادث فردى .

والذى ارتكبه فرد اسمه الترابى ، فهل نحن جميعا من قبيلة الترابى ، هل الترابى هو آدم بتاعنا ؟ قالت البنت طيب خد عندك .. هل تذكر الاتحاد السوفيتى ؟ كان في مجال الاسلحة يتقدم الصفوف ، وكانت لديه طائرة مقاتلة هى الميج ٢١ . وكان الغرب بكل اجهزة مخابراته وبكل جواسيسه يسعى للحصول على طائرة واحدة من هذا الطراز ليعرف سرها ويخترع السلاح المناسب لها . ومع ذلك فشل الغرب وفشلت أجهزته وغلب حماره فأوقف كل مساعيه في انتظار فرصة وجاءته الفرصة على طبق من ذهب كان الاتحاد السوفيتى قد قدم معونات عسكرية لبعض حكومات بنى حمير ، وكان من بينها

حكومة البوابة الشرقية ، وفى هذه الحكومة وزير من النوع الثورى كاوانورى وهو معجبانى مرة يرتدى البلدلة الباريسية ومرة يرتدى بدلة المارشال وهو يشبه ، الخالق الناطق ، ممثلا كوميديا مشهورا ودائما يبدو للناظرين وبين شفتيه سيجار كوبى ضخم ، هذا الوزير الثورى كاوانورى له صهر اسمه « روفه » كان طيارا فى سلاح الجو فى البلد إياه وذات صباح امتطى صهوة طيارته الميج ٢١ وطار بها من قاعدته وحط بها فى قاعدة جوية إسرائيلية بجوار تل ابيب وسلم الطائرة لقمة هنيئة لأعدى اعدائهم وقبض الثمن ٤ ملايين دولار وقصرا ، فى ضواحى تل ابيب ، جمع فيه اسرته بعد ذلك ، وبعض المؤرخين يعدون هذا العمل كأول مسمار دق فى نعش الاتحاد السوفيتى الراحل قلت للبنت الخواجاية : وفيها إيه ده واحد خائن لشعبة وأمته ويوجد مثله فى كل بلد فهل معنى هذا أن كل بنى حمير خونة ؟ قالت البنت الخواجاية : ما فعله هذا الحمار ليس مجرد خيانة بسيطة إنها خيانة مركبة وهى خيانة ليست ضد الروس ولا ضد الاتحاد السوفيتى ولكنها خيانة كانت فى الأساس لبنى قومه وخيانة لبنى جنسه ، وهو حصل على ٤ ملايين دولار ثمنا لخيانته وهو ثمن بخس إذا قيس بحجم الجريمة التى ارتكبها . خذ عندك مثلا آخر .. عندما غزت إسرائيل لبنان انحاز نصف اللبنانيين إلى إسرائيل ضد إخوانهم فى الوطن وكان على رأس كتيبة المنضمين لإسرائيل الموارنة اللبنانيون والمسلمون السنة قلت لها : قد يكون هذا صحيحا ولكنك «نسيتى » موارنة آخرين كانوا فى خندق المناضلين العظام أحدهم كان صحفيا وكان يملك دار نشر رائجة ومنتشرة وهو سعيد فريحة وتحولت صحفه وجرائده إلى سكاكين مغروزة فى جنب العدو الإسرائيلى وتناسيت مسلمين سنة عظماء حاربوا إسرائيل وسقطوا

بعضهم شهداء في المعركة وواصل البعض الآخر النضال ضد إسرائيل حتى النهاية ، قالت البنت الخواجاية : هذه نماذج فردية وأنا لا أنكر هذا ولكن ألم تسمع عن الرجل الفلسطيني الذي قام بتسليم التليفون المحمول للمهندس عياش قائد كتائب عز الدين القسام وهو التليفون الذي أدى إلى موته وكان موعودا بمكافأة مالية كبيرة ولكن اليهود كعهدهم نقضوا عهدهم معه وحرموه من المكافأة فرفع دعواه يطالب بحقه أمام محكمة أمريكية وماذا في هذا الأمر ؟! إنه خائن مثله مثل الطيار الذي قاد الطائرة الميج ٢١ وهبط بها في إسرائيل . وهل نسيت يا خواجاية اللورد « هاوهاو » الانجليزي الذي كان يذيع في محطة إذاعة المانيا ، ويعرض على الإنجليز الاستسلام لهتلر والانضمام إلى جانب الرايخ الألماني الثالث ؟! قالت : اللورد هاوهاو كان خائنا عاديا لم يقتل أحدا من الإنجليز ولم يسلم هتلر سلاحا فعالا لقتل ابناء وطنه ، ولكنه كان يتكلم فقط ويحاول إقناع الإنجليز بمنطقه السقيم ، وكان الإنجليز يستمعون إليه ويبصقون على وجهه وكان تأثيره على ابناء وطنه قليل الأثر بل أقول عديم الأثر ولا وزن له على الإطلاق . قلت للبنت الخوجاية : تدافعين عن هاوهاو لأنه من جنسك ... أوربي مثلك . أما الخونة تبعنا فأنت تضخمين أفعالهم وتبرزين ممارساتهم لكي تحكمي على جنسنا كله بأنه جنس لا يصلح للحياة . قالت البنت وقد شخطت ونطرت وسألتني : هل تستطيع أن توضح لي الفرق بين خيانة هاوهاو وخيانة الجنرال (ابو حنيك) قائد الجيش الأردني في أثناء الحرب عندما انسحب فجأة كاشفا جناح الجيش المصري فاضطر الجيش المصري إلى الانسحاب في الوقت الذي كان فيه على مسيرة ساعتين من تل أبيب ؟ قلت لها .. الحمد لله .. لقد ذكرت أنت اسم الخائن ، واسمه ليس ابو حنيك ولكن اسمه

الحقيقي الجنرال جلوب ، وهو أوربي مثلك وإنجليزى على وجه التحديد هتفت البنت الخواجاية .. الحمد لله ، لقد سهلت المهمة أمامي فذكرت أنت اسمه وجنسيته ، فهل تفسر لى كيف وثقتم فى قائد بريطاني يقود جيشكم فى حرب تحرير وضد إسرائيل بالذات ؟ ألم يكن إنجليزيا هذا الذى اصدر وعد بلفور بإنشاء وطن قومى يهودى على أرض فلسطين ؟ ألم يكن الانتداب الإنجليزى على فلسطين هو الذى سهل الأمر أمام اليهود للهجرة إلى أرض فلسطين ؟ لقد كانت الشرطة الإنجليزية فى فلسطين هى التى تولت تجريد العرب من اسلحتهم وطاردت النشطين منهم وسجنتهم واضطرت بعضهم إلى الهجرة من فلسطين ! كيف ـ والوضع على هذا الحال ـ وثقتم فى إنجليزى وسلمتموه قيادة أحد جيوشكم فى معركة التحرير ؟ قلت للبنت الخواجاية .. إنه الملك عبد الله الأول غفر الله له الذى سمح للإنجليز بقيادة الجيش الأردنى فى المعركة ، وليس هذا ذنب كل قبائل بنى حمير كما تزعمون ، قالت الخواجاية بغضب ولكن الثابت والأكيد أن أحدا منهم لم يعترض ولم يرفع أحدهم صوته بالاحتجاج . وأول صوت احتجاج ارتفع فى العالم الحميرى ضد هذا العمل جاء بعد ٤ سنوات من انتهاء الحرب ، وجاء من القاهرة على لسان قائد الثورة التي شهدتها القاهرة في منتصف عام ١٩٥٢ . وهو دليل قاطع على أن بنى حمير جميعا كانوا مطمئنين إلى القائد الإنجليزى فى أثناء نشوب الحرب . ثم .. لماذا نذهب بعيدا ؟ انظر حولك الآن ستجد موقفا مشابها مع اختلاف فى الشكل وليس فى الجوهر .. الآن والحرب لا تزال شغالة ورصاص اليهود ينطلق فى صدور الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة ، وصواريخهم تنهال على جنوب لبنان والمعاول تهدم القديم لتقيم على أنقاضه مستوطنات

إسرائيلية جديدة بينما يحشر مئات الألوف من الفلسطينيين فى مخيمات اللاجئين فى الوقت نفسه يسعى الكثيرون منكم وبإصرار على تأليف جمعيات الصداقة مع إسرائيل ، أفهم أن تبدأ هذه الخطوة بعد أن يستتب السلام ويضع الإسرائيلى سلاحه وتقوم دولة فلسطين الحرة وتعود الجولان إلى الوطن الأم سوريا ، ويعود المسجد الاقصى إلى ولاية وحماية المسلمين . أما قبل ذلك .. فكيف يسعى بعضكم إلى جمعيات الصداقة وجماعات انصار السلام ؟ إنها عملية اشبه ببث الألغام فى طريق المقاتلين وهم فى سبيلهم إلى القيام بغزوة فى سبيل الله قلت للبنت الخواجاية عندك حق ، ولكن بالرغم من ذلك لم تستطع هذه الجمعيات والجماعات أن تصل إلى الناس العاديين ، وهى لا تضم إلا جماعات من المثقفين الذين لا يدركون حقيقة مشاعر الناس العاديين تجاه العدو الإسرائيلى ، ولذلك فهذه الجماعات التى تأسست بالفعل والتى ستقوم فى المستقبل هى مجرد زينة فى ثوب بنى حمير تماما كازرار كم الجاكتة ليس لها دور ولا وظيفة ! قالت البنت بحسم : لأحضرتك غلطان والمسألة ليست كذلك .. أن هذه الجماعات قد توهم قطاعا من الناس الطيبين أن السلام عاد يانيل ، وأن الجو بديع والدنيا ربيع قفللى على كل المواضيع ، اغنية سعاد حسنى المريضة البائسة التى انزوت تلعق جروحها فى شقة متواضعة بمدينة لندن ، وتنظر بحسرة إلى ما انتهت إليه الأمور فصارت نادية الجندى هى معبودة الجماهير بينما صارت سعاد حسنى جزءا من التاريخ مع أن الفرق بين الموهبتين هو نفسه الفرق بين جيش الولايات المتحدة وجيش جمهورية رواندا !!

قلت للبنت الخواجاية : من يسمعك يتوهم أنك صوت من بنى حمير ، تتكلمين بلسانهم وتحاربين بسيفهم فهل أنت عنصرية وضد

السامية ومع بني حمير ؟ قالت البنت بثقة : أنا لست مع إسرائيل ولست مع بني حمير ، ولكنني مع العدل والحق ، هكذا نشأت وهكذا تربيت وهكذا أرجو أن ألقى ربي . قلت : ولكنك أحيانا تشتدين في نقد جنسي وأهلي حتى يخيل إليّ أنك تعملين لصلحة جهة معادية .
قالت : وهذا من عيوبكم أيها الحمار الصغير كل من ينقد أحوالكم المايلة فهو بالضرورة عدو أو عميل يعمل لحساب جهة أجنبية أو أرزقي يأكل عيشه من أداء دور ضدكم لحساب آخرين . هذه إحدى نقاط الضعف عندكم ، وهذا الحال على مستوى الخارج والداخل .
في بلادكم المترامية الأطراف يسجن المواطن الذي يختلف مع الحاكم حول تفاصيل إدارة البلاد ، مع أن حاضر البلاد ومستقبلها يجب أن يخضع للمناقشة والحوار وتبادل الآراء . ولذلك أشعر بحزن دفين عندما أشاهد حالكم المايل وأموركم المعوجة ، مع أنكم امبراطورية قديمة وفي وسعكم أن تصبحوا امبراطورية جديدة ولكنكم ترتكبون أحيانا من الحماقات مايثير غضب الحليم وما يفقد الحكيم حكمته .
خذ عندك آخر عمل غير معقول قمتم به ، أيام النضال المسلح ضد إسرائيل ، تحمس عدد من اليابانيين من أعضاء تنظيم ياباني مسلح واستولى عليهم الغضب بسبب ممارسات إسرائيل .. غير الإنسانية ، بسبب ضعفكم وتهافتكم فركب الشباب اليابانيون طائرة العال الإسرائيلية وهبطت بهم في مطار اللد الدولي ، وما أن وضعوا اقدامهم على أرض صالة المطار حتى فتحوا حقائبهم وتناولوا منها مدافع رشاشة قصيرة ، ومسحوا الصالة مسحا وسقط عشرات من الإسرائيليين بين قتلى وجرحى ، واخذتهم إسرائيل وسجنتهم وبقوا في سجنهم زمنا طويلا ثم افرجت عنهم وقامت بتسليمهم إلى دولة حميرية واستقبلتهم الدولة الحميرية ووضعتهم في السجن ، ثم

افرجت عنهم ولكن من المطار وشحنتهم فى طائرة إلى عاصمة دولة حميرية أخرى هل تعرف ماذا فعلت العاصمة العربية الأخرى ؟! .. شحنتهم فى طائرة روسية فى طريقها إلى اليابان ، ومن المطار ساقتهم الشرطة إلى السجن اليابانى وبالطبع لن يقدر لأحدهم أن يمارس الحياة مرة أخرى ، ولكن أغلب الظن أنهم سيلقون الله وهم محبوسون فى زنازينهم وسيدفنون فى مقابر الصدقة التى تضم جثث الصياع والمشردين وتسأل نفسك : لماذا لم تقم إسرائيل بتسليمهم لدولتهم ؟ لأن إسرائيل حريصة على أن تبقى صورتها أمام العالم على أنها واحة الديمقراطية والحرية ، وهى عندما قامت بتسليمهم للدولة الحميرية كانت تعرف أن مصيرهم إلى السجن فى بلادهم ولكنها لم تشترك فى هذه الجريمة ولم تسهم فى أية مرحلة من مراحلها . قلت للبنت الخواجاية : الله يخيبك ويكسفك تنكشين فى جروحي بقسوة ولكن ماذا أقول لك ؟ لقد تعبت من نقاشى معك وزهقت من الحوار الذى استمر طويلا بينى وبينك . ولا اعتقد اننى سأستطيع مواصلة الحوار إلي ما لا نهاية . قالت البنت الخواجاية : أنت الذى تقول هذا الكلام ، طيب ماذا أقول أنا ؟ مع أنك تناقش عقلا ذكيا وعصريا فى الوقت الذى أناقش فيه حمارا يضع على وجهه قناعا عصريا . أنا أيها الحمار الصغير التى تعبت وضاقت بك وبنظريات الخنفشارية ولا أعتقد اننى سأصبر على صحبتك طويلا .. وأحذرك من الآن .. إذا واظبت على حموريتك سأتركك وأمضى دون وداع . فلم يعد فى العمر ما يكفى لتبديده فى إجراء حوار مع حمار أو جحش أو بغل أو ماشبه ذلك . قلت لها موافق فلنقطع جزءا آخر من الطريق ونترك الحرية لكل منا ليفر من صاحبه إذا شعر بالسأم أو الملل أو القرف ، وليكن فراقنا بلا وداع وبلا عتاب .



١٢

صــالح..
الأراجوز الدولى!

قالت البنت الخواجاية وهي تحاورني : هل تريد مزيدا من الأدلة ؟! قلت لها : إيه تاني يا خواجاية ؟ قالت : سأضرب لك مثلين في غاية البساطة وهي مسائل تافهة للغاية ، عندكم شريط ساحلي على البحر الأبيض وشريط آخر على البحر الأحمر ومياه بحركم ليس لها مثيل لا في الكوت دازور ولا في الكوت برافا وشواطئكم كلها رملية مع أنها في أغلب دول العالم زلطية .. وكان عليكم أن تنافسوا الدنيا كلها وتضمنوا الفوز على الجميع ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ أقمتم حائطا أسمنتيا على طول الشاطيء فأخفيتم البحر عن الأنظار ، وملكتم الفيلات والشاليهات لبعض الناس ، بعضهم يقيم فيها شهرا وبعضهم يتردد عليها أياما ، والبعض لم يضع قدمه عليها لسنوات .

مع أنه كان بوسعكم تأجيرها لأهل أوروبا في الشتاء ، حيث إن شتاءكم هو مثل صيف أوروبا ، ولكنكم تهجرونها في الشتاء فتصبح خرابا ، ومعنى هذا أنكم خسرتم عدة مليارات دفنتموها في رمال الصحراء على شاطيء البحر .. وما حدث في البحر الأبيض حدث نفسه في البحر الأحمر . صحيح أنكم في البحر الأحمر أقمتم قرى وفنادق سياحية . ولكنكم أخفيتم البحر فلم يعد يراه إلا القادر الذي

يستطيع أن يسدد قيمة الفاتورة . وهى عملية غير إنسانية لأن البحر هو حق مشاع لكل الناس ، الفقراء قبل الأثرياء ، الذين يملكون قيمة الفاتورة والذين يملكون البشر

عندكم فى بلاد العصر الحميرى أطول أنهار العالم . كورنيش النيل فى الشمال كان كأنه قطعة من الجنة ، شريط أخضر على الشاطىء مباشرة وفيلات وقصور على الجهة المقابلة . وكانت العائلات الفقيرة تهرع ليلا إلى شاطىء النيل لتفرش على النجيل تشم الهواء بينما أطفالها تمرح على الشاطىء ، ويتناول الجميع طعام العشاء من ألوان الطعام التى جلبوها من منازلهم ، فى نفس الوقت كان يتزاحم على الشاطىء أسطول من عربات اليد من باعة الترمس وباعة التين الشوكى وباعة الفواكه بأنواعها ، غير باعة الكازوزة ، كان شاطىء النيل فى الشمال يبدو كل ليلة كأنه مهرجان قومى لكل أنواع التسلية والمتعة . ولكن هذا الشاطىء كان يبدو كخرابة مهجورة فى الجنوب ، والجنوب الجوانى الذى انفصل عن الشمال وتحول إلى دولة مستقلة . وكان المنطق يقول : إن العدوى ستنتقل من الشمال إلى الجنوب فيصبح الشاطىء الجنوبى كالشاطىء الشمالى .. مهرجانا للتسلية والغندرة والجمال . ولكن عبقرية العصر الحميرى فعلت العكس ، تحول الشاطىء الذى فى الشمال إلى خرابة كالشاطىء الذى فى الجنوب ، تحول الشريط الأخضر إلى كتلة أسمنت صماء وتحول إلى مواقف سيارات . وتحول النهر نفسه إلى مراكب متراصة حجبت النهر عن العيون ، مراكب مطاعم ومراكب ملاهى ومراكب قهاوى .. وأزيلت القصور والفيلات وحلت محلها أبراج سكنية قبيحة ، وأصبح السير على الشاطىء ممنوعا ، ومن هو المجنون الذى

يسير في شارع تحتشد فيه السيارات على يمينه والأبراج على يساره ؟ أما الشاطىء في الجنوب فقد ازداد وحشة ، ظهرت البنايات على أحد جانبيه ، لكن لا أحد يجلس على الشاطىء ، ولا بائع سريح يبيع تين شوكي ، أو يسرح بزجاجات كازوزة أو واحد نشيط يشوى كيزان ذرة ، لا شيء على الإطلاق سوى الظلام وصوت النيل الأزرق ، المتوحش يختلط بأصوات الوحوش التي تسبح في النهر وهكذا ، حولتم أعظم وأجمل أنهار العالم إلى طريق صحراوى موحش لا شيء فيه يفتح النفس أو يشرح الصدر .

خذ عندك مثلا أبسط من هذا وفي مسألة أهيف . عندكم فريق وطني لكرة القدم ، انهزم هزيمة قاسية في مباراة فأعلنتم حل اتحاد الكورة وفصل المدرب . طيب زى بعضه ويحدث مثل هذا عادة في أحسن العائلات .

ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ تعاقدتم مع مدرب فرنساوى مع أن اللغة الأجنبية المفضلة في مدارسكم هي الانجليزية فكان لابد من الاستعانة بمترجم ، العيال اللعيبة لا يعرفون حرفا في اللغة الفرنسية، ولذلك لم يفهموا شيئا ، وانكشف المدرب الفرنساوى في أول امتحان فلم يحقق شيئا وترك المهمة وعاد إلى بلاده ، ولكن بعد أن لهف كل شهر مبلغا من المال يكفي لبناء مدرسة كل شهر ، ويكفي لبناء مستشفى مجهز كل شهرين ، ويكفي لتوظيف مائة شاب كل عام . وماذا كانت النتيجة ؟! لا شيء ، لا الفريق القومي استفاد ولا البلد استفادت ، وماذا حدث بعد ذلك ؟ لا شيء صمت الجميع ، وظهرت السعادة على الكل وبراءة الأطفال في أعينهم .

قلت للبنت الخواجاية .. غلب حمارك يا خواجاية وهذه الأمثلة

هايفة وبسيطة ويحدث مثلها فى كل زمان ومكان . قالت البنت أم عين غليظة : هذه أمثلة من نوع الرفايع ، ولكن هل أنت مستعد للدخول فى العميق ؟

قلت لها : هذه حجة البليد الذى مسح التختة . لو كان عندك أمثلة فى العميق لما ترددت فى قولها . قالت : أسكت وسترى ، ولكن عيبكم فى العصر الحميرى أنكم جميعا متعجلون . قلت : هأنذا صابر وصامت . قالت : عندكم فى العصر الحميرى دولة فى حجم كف اليد ، احترفت فى الفترة الأخيرة عقد الصلح بين المختلفين والمتحاربين . تدخلت فى البداية لعقد الصلح بين الترابى والبشير ، وكانت النتيجة وقوع القطيعة بين الزعيمين .

وتدخلت لعقد الصلح بين أثيوبيا واريتريا وكانت النتيجة اشتعال نار الحرب بين البلدين ، حرب ولا حرب البسوس ، بل إنها بواسطة وزير خارجيتها الهمام سعت لعقد الصلح بين القبائل المتناحرة فى الصومال وكانت النتيجة مزيدا من التمزق ومزيدا من الاقتتال . وهى تفكر فى الوقت الحاضر فى عقد الصلح بين حكومة بريطانيا والجيش الجمهورى الأيرلندى ، ولديها خطة لعقد الصلح مستقبلا بين الولايات المتحدة والصين ، وهى لا تدرك أن منظرها وهى تقوم بهذه المهام يشبه منظر صالح الأراجوز ، وهو رجل طيب من أهالى الجيزة لم تكن له مهنة محددة ، ولكنه كان أحيانا يسرح فى الحوارى بخيمة صغيرة يسرح فيها بالأراجوز فيعرض ألعابه على الأطفال ويجمع منهم قروشا قليلة وفى أحيان أخرى كان يقطع شوارع الجيزة بموكب مكون من عدة بقرات وجيش من الأطفال ، وكان يصرخ وهو يجذب حبل البقر المزين بورود ونباتات (بكره من ده) فيرد الأطفال

(بقرشين) وكانت هذه طريقته فى الإعلان عن لحم البقر الذى كان سعر الرطل منه قرشين صاغ لا أكثر ولا أقل . ولكن صالح الأراجوز كان يحلو له أحيانا أن يقوم بدور الوساطة بين فتوات الجيزة عندما يدب الخلاف بين إبراهيم عبد السيد ومصطفى لطفى ، وبين محمد مرعى وميمون وحش الجبال ، كان صالح الأراجوز الذى لا يزيد طوله على متر يبدو بشاربه الذى يشبه شارب هتلر كأنه أراجوز آخر من لحم ودم .

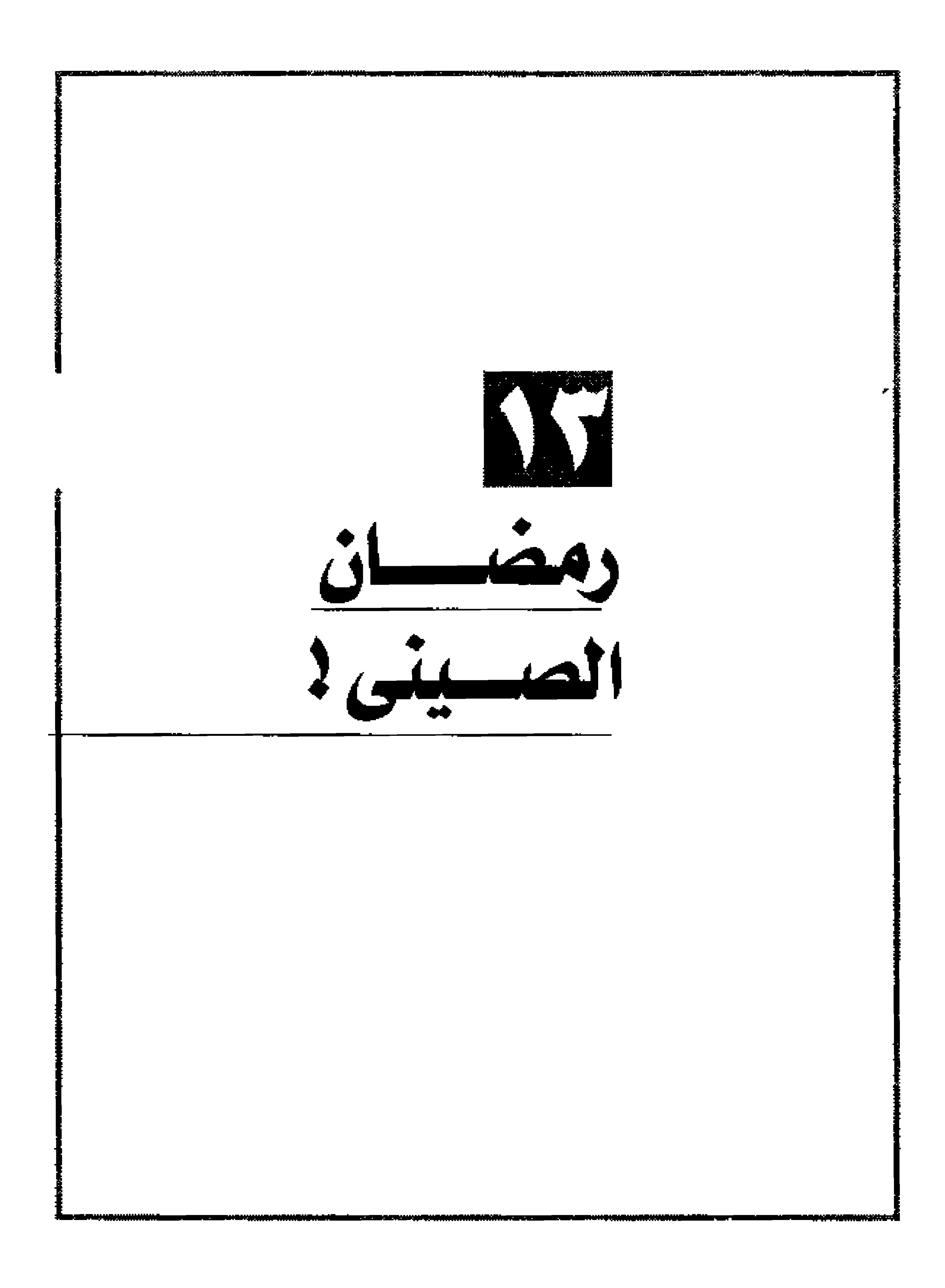
وكان عندما يقوم بالوساطة يرتدي جلبابه البلدى المقلم ويمسك بيده عصاه الغليظة التى ترتفع فوق قامته ، ثم يذهب إلى الفتوة مرعى ويقف أمام المقهى ويصيح وهو يهز العصا فى الهواء قائلا : انتوا اخوات وانت الفتوة الكبير واحنا كلنا اخواتك الصغيرين ، صلى ع النبى يا معلم مرعى ولازم تقعد مع المعلم ميمون وتقروا الفاتحة وناكل لقمة سوا والمصاريف على حسابى . وكان الفتوة مرعى يضحك كثيرا ثم يمد يده ويلزق صالح الأراجوز على قفاه ، وكان صالح يمد يده ويمسح قفاه ، ويقول للمعلم مرعى : وماله ما احنا كلنا عيالك ، والمهم نقعد كلنا وناكل لقمة والمصاريف على حسابى .

وكان إذا انتهى من مهمته عند المعلم مرعى ذهب إلى حيث يجلس ميمون وحش الجبال ويعيد تمثيل الدور من جديد .. و : يا معلم ميمون أنت عم الناس كلها وعيب يبقى فيه مشاكل بينك وبين المعلم مرعى ولازم نقعد وناكل لقمة كلنا عشان يبقى عيش وملح والمصاريف كلها على حسابى . وكان الفتوة ميمون وحش الجبال ينظر إلى صالح الأراجوز ويقول له : عجين الفلاحة يا وله . وعلى الفور كان صالح الأراجوز يقوم بتمثيل دور القرد عندما يقلد عجين الفلاحة ونوم

العازب ، وكان وحش الجبال يضحك من أعماقه ويضحك الجالسون معه ، وفي النهاية يقول لصالح الأراجوز : خلاص يا صالح .. اللي تؤمر بيه راح ننفذه والصلح خير وأنت كتر خيرك . بعدها كان صالح الأراجوز يطوف الجيزة كلها يزف البشرى للناس بأن الخلاف بين مرعي وميمون قد انتهى وأن النفوس هدأت وكل شيء سيكون على ما يرام بفضل الحاج صالح الأراجوز وعلى حسابه . وبرغم أن صاحبكم - وزير خارجية دولة « الحبيب » - يعلم أنه مجرد صالح الأراجوز وأن منظره يثير الضحك ولا شيء آخر . فإنه لم يكف عن القيام بدور الوساطة لجمع الشمل . الفرق الوحيد بينه وبين صالح الأراجوز أن صالح كان يحمل معه عصا أطول من قامته ، ولكن صاحبكم الجديد يحمل دفتر شيكات أطول من الشريط الحدودي بين أثيوبيا وأريتريا . لأن الأمر ما يخلاش ، قد يحتاج إلى صرف حفنه دولارات لهذا الطرف أو ذاك . آخر محاولة قام بها عم صالح الأراجوز الجديد هو السعي لعقد الصلح بين الكويت والعراق ، مع أنه يعلم تمام العلم أن الجراح بين الدولتين لا تكفي جهود كل أطباء العالم لشفائها .. ولكن ماذا تقول لصالح الأراجوز الحريص على أن يسود الهدوء وتمتد أواصر المحبة بين فتوات الجيزة بجهوده وبفلوسه إذا لزم الأمر ؟

سكتت البنت الخواجاية وقالت : هل تريد مثلا آخر من البحر العميق ؟ قلت : يا خواجاية كفانا الليلة أمثلة وحكايات ، ولكن هناك ملاحظة لابد منها يا خواجاية . خُيل إليّ أن عينك لا تلتقط إلا كل ما يسيئ إلينا ويحط من قدرنا . يوسوس لي شيطاني أحيانا أنك جاسوسة مدربة تحاولين هدم معنوياتنا لكي تمهدي الطريق أمام

زحفكم للعودة من جديد وممارسة ألاعيبكم وحركاتكم المسمومة . قالت البنت الخواجاية : بالرغم من كل شيء .. يعجبنى عدم مبالاتكم وتمسككم بأنكم على حق ومنتقدكم على باطل ، والثقة فى النفس والاعتداد بما تفعلون سلاح لا بأس به ولكنه سلاح ذو حدين . وكان هو السبب فى نكستكم الكبرى ذات يوم . عندما تصورتم أنكم أقوى قوة في الشرق الأوسط ، لدرجة أنكم قلتم وصرحتم بأنه لا إسرائيل ولا أمريكا تستطيع الوقوف أمام جحافلكم ، ثم ماذا كانت النتيجة ؟ كما يقول المثل « عند الامتحان يكرم المرء أو يهان » وعلى العموم .. أنا سعيدة لأنك مبسوط ومرتاح من أوضاعكم .. وكل ما أرجوه لك استمرار السعادة ودوام الرضا والانبساط !



١٣

رمضان الصينى!

قالت البنت الخواجاية وهى تتحفز كقطة شرسة تتأهب للانقضاض على فأر صغير : هل تريد حيثيات أخرى تثبت أنكم من قبائل بنى حمير ؟ قلت : هاتى ياخواجاية ما يثلج صدرك ويفك عقدك ! قالت : خذ هذا المثل .. عندكم قطن هو باعتراف العالم كله أجود أنواع القطن على وجه الأرض .

وعندكم عمال نسيج هم أمهر العمال باعتراف الجميع . وعندكم مصانع نسيج أكثر من الهم على القلب ، ومع ذلك أغلبها معطل ، وأغلب ماكيناتها متوقفة لنقص قطع الغيار . مع أنكم بشىء من التخطيط وقليل من دراسة السوق كان عليكم أن تحققوا المليارات من وراء هذه الصناعة . قلت : وكيف نحقق هذا يا أم العريف ؟ قالت : أنتم فى منطقة الجلابية القطن هى الزى الرسمى لشعوبها . منطقة الخليج مثلا تستهلك فى العام مائة مليون جلابية .. لو أنكم انتجتم هذه الكمية وحققتم عشرة جنيهات ربحا فقط فى كل جلابية لربحتم مليار جنيه كل عام . ولكنكم تركتم المجال خاليا أمام الصينى ، فأنتجت الصين الجلاليب ، وانتجت السراويل ، وربحت المليارات . مع أنكم تقيمون داخل السوق نفسها ولكنكم لم تهتموا بها ولم تحاولوا جنى أرباحها . قلت للبنت الخواجاية : ولكن عذرنا معنا .

فهذا النوع من الجلاليب يحتاج إلى مادة كيماوية ليست فى حوزتنا . وقالت : وما الذى منعكم من الحصول عليها ؟ هل هو العهد البائد ؟! هل هو الاستعمار ؟! هل هى المؤامرة الصهيونية ؟ وهى الحجج التى تتحججون بها عند كل عذر ، وهى الشماعة التى تعلقون عليها كل أخطائكم وخطاياكم ! عندكم مهندسون نسيج عباقرة ، ولديكم مراكز بحوث وجامعات كبرى ، فما الذى منعكم من الحصول على هذه المادة؟! وعندكم قبل هذا وبعد هذا المال الذى يضمن لكم الاستمرار فى البحث والنجاح فى اكتشاف المادة المطلوبة . ألم يكن هذا أجدى من إهدار المليارات على مشروع أبو طرطور وأم طرطور أيضا ؟! ألم يكن أفيد للاقتصاد من مشروع حديد أسوان وصفيح أسوان ؟ ألم يكن مشروع مثل هذا أولى من الأموال الطائلة التى هبرها رجال الأعمال ونساء الأعمال ؟ وسكتت البنت لحظات وقالت : وحتى لو كان دخل صناعة الجلاليب سيضمن استمرار الرزق لعمال النسيج ورفع مستواهم لكان ذلك وحده مكسبا للأمة كلها ، خصوصا إذا عرفنا أن عمال النسيج عندكم يمثلون ثلث حجم العمالة كلها ! ومع ذلك أهملتم الغرف من هذا الكنز ، واحتشدتم وراء مشروعات وهمية لا تعطى عائدا على الاطلاق !

قلت للبنت الخواجاية : هل هذا كل ما عندك ؟ قالت : لا .. عندى الكثير . خذ عندك هذا المثل أيضا . رمضان هو شهركم المقدس ، وهو علامة المسلمين وعيدهم الأكبر . ولعيد رمضان لعبه الخاصة به . ينتظرها الأطفال من رمضان لرمضان ، فوانيس رمضان هى ما يتطلع إليه كل طفل مسلم . وكان السمكرية عندكم يصنعون فوانيس بدائية من صفيح بدائى يضع الطفل فيها شمعة تضيء له الطريق ، ويغنى الأطفال وهم يتجولون على ضوء شموعها أغنيتهم

المفضلة : وحوى يا وحوى . ولكن سوقكم الإسلامية العريضة شهدت منذ عامين إغراقا بنوع من الفوانيس أشكالها ظريفة وألوانها لطيفة ، وبدل الشمع حلت لمبات كهربائية ، وبعض هذه الفوانيس العصرية يغني وبعضها يؤذن . وفي عدة أيام من بداية رمضان اختفت هذه الفوانيس من السوق . وهكذا سرقت الصين رمضان الذي هو عيدكم وحصدت الأرباح من جيوبكم .. مع أنكم كان أولى بكم إقامة مصنع لهذه الفوانيس الجديدة ، بعد أن تجمدت صناعتها منذ عهد الفاطميين إلى اليوم ! ألم يكن هذا أجدى عليكم من صناعة السمن التي لها طعم الفلاحي ورائحة الفلاحي ، وهي الصناعة الأكبر التي تحظى بمعظم الفترة الإعلامية في أجهزة إعلامكم ؟! قلت للبنت الخواجاية : هذه النقطة عندك فيها حق .. فأغلب صناعاتنا عن السمن التي لها طعم الفلاحي ورائحة الفلاحي ! سمن الهانم وسمن النخلتين وسمن البلحتين وسمن الضربتين ! قالت البنت الخواجاية : في الحقيقة لا بأس على هؤلاء جميعا ، صناع السمنة وصناع الإيكا .. ويبدو أنكم فهمتم كلمة الصناعة بطريق الخطأ . لأن الدول الصناعية ليست هي التي تصنع السيارات ، ولكنها التي تصنع المصنع الذي ينتج السيارات ، وهي التي تصنع المصنع الذي يصنع الدبابة ويصنع المدفع ويصنع جميع الماكينات والآلات . ولكن إذا لم يكن هذا متوافرا ، فلا بأس من صناعة السيارة وصناعة الأسلحة وصناعة معدات الزراعة وماكينات الري . ولكن نظرة على ما يحدث عندكم ستجد العجب . رئيس اتحاد الصناعات لا يصنع شيئا ، ولكنه يملك مصنعا لتجميع السيارات ، وإذا كان رئيس اتحاد الصناعات يقوم بعملية تجميع السيارات ، يكون الذي يصنع سمن النخلتين من الصناع ، ويصبح الذي يطحن الغلال من الصناع أيضا ! قلت للبنت

الخواجاية : عذرنا أننا لا نملك مواد أولية كثيرة .. شهقت البنت الخواجاية وقالت : يا ندامتي ! ما رأيك أن اليابان أعظم دولة صناعية لا تملك أي مادة خام ؟! الصناعة لا تحتاج إلى أي مواد خام إذا صدق العزم وتوافرت النية . ولكن مصيبتكم أنكم معجبون بالأسماء.. أما المضمون فلا شيء يهم . في زمن ما في عصر سابق رفعتم شعار الثورة الخضراء ، واستولى البعض من المهلباتية على مساحات واسعة من الصحراء ، ولكن مساحة المشروعات لم تتعد عدة أفدنة ، ومع ذلك حصلوا على الامتيازات وعلى قروض البنوك تحت شعار الثورة الخضراء . وفي زمن ما في عهد سابق ظهرت عصابات مدربة، لا دين لها ولا ملة ورفعت شعار الأمن الغذائي ، وافتتح أفرادها عدة أكشاك على أرض الحكومة ومدوا أسلاك الكهرباء بالهلوشي من أعمدة نور الحكومة ، وباعوا للناس من خلال هذه الأكشاك غربانا وصقورا وبجعا ميتا ، ثم عكم كل منهم العكمة وتسلل هاربا إلى الخارج ، بعد أن اكتسب لقب مدير الأمن الغذائي ، .وراسه برأس مدير الأمن العام ! أخذ فلوس الناس على عاتقه ورحل خارج الحدود إلى حيث النغنغة والغندرة والانشكاح . وفي زمن مضى في ظروف سابقة رفعتم شعار أرض الفيروز ، وألفتم الأغاني .. أنا رايح أرض الفيروز .. أنا جاي من أرض الفيروز .. أنا هاعمر أرض الفيروز .. ولم يحدث أي شيء على أرض الفيروز إلا أن بعض النصابين - هربوا قطعا من أرض الفيروز - باعوها بعد ذلك لمستثمرين عرب أقاموا عليها قرى سياحية .. وكله مكسب على أرض الفيروز ! لذلك أيها الطيب أجد نفسي أرعش حاجبي رغما عني كلما سمعت أحدا ينطق بشعار الوحدة العربية أو يسعى لقيام السوق العربية المشتركة . والسبب أن ورك الأمة داست عليه سيارة نقل بمقطورة فسحقته

سجقا ! الورك إياه تطلقون عليه وصف البوابة الشرقية للأمة .. - وبالرغم من ذلك فأنتم تكتفون بالنظر إلى الورك المسحوق دون أن تفعلوا أى شىء لمسح الجراح أو لتخفيف الألم . وبسبب الحصار والجوع وفقدان الأمل ، العائلات هناك تدهورت أحوالها والأطفال هناك بعضهم سقط فى براثن السرطان ، ومن نجا منهم ضاع فى الشوارع . والبنات هناك اخترن أزواجا أثرياء وعجائز ، وبعضهن هجر بيت الأسرة وهام على وجهه فى الشوارع . ومع أنكم جميعا تنظرون ولا تفعلون شيئا إلا أن أغانى الوحدة تملأ الجو ، وقصائد الشعراء تتغنى بالعروبة عموما .. القول عندكم لا علاقة له بالفعل .

وأخيرا .. أنتم انجزتم شيئا لا شبيه له فى العالم كله .. حولتم الجمهورية إلى ملكية ، وأصبح منصب رئيس الجمهورية يورث للابن بعد أبيه ! قلت للبنت الخواجاية : ولكن نحن لسنا الرواد فى هذا المجال ، فقد سبقتنا إليه دولة شيوعية كانت تحكم بمبادىء ماركس ولينين . والمضحك حقا أن الرئيس الشيوعى الراحل قام بتوريث الحكم لابنه بنشر عشر قصص للسيدة والدته كتبتها فى شبابها المبكر ، نشرها كإعلانات فى صحف أوروبية وصحف أخرى شرق أوسطية . ثم نشر بعدها كإعلانات أيضا عشرة مقالات نقدية عن أدب السيدة الوالدة الذى لا يقل عن أدب تشيكوف .. ولعلمك يا خواجاية نحن الذين بدعنا توريث مناصب الوزراء وليس رؤساء الجمهوريات ! ففى العصر الوسيط اضطربت الأحوال فى القاهرة ، واضطر الخليفة الضعيف إلى استدعاء أحد الأمراء الأقوياء واسمه بدر الدين فاضل الجمالى وقلده منصب رئيس الوزراء .. واستطاع الأمير القوى أن يعيد النظام إلى العاصمة وأن يضبط الأمور ، وهو الذى أنشأ حيا فى القاهرة أطلق عليه اسمه .. هو حى الجمالية ، فلما مات ورث ابنه

منصبه كرئيس للوزراء . وظل هذا النظام معمولا به فترة من الوقت .. وهكذا ترين أننا لم نبتدع شيئا جديدا ، ولكننا نؤمن بالمثل القائل : من فات قديمه مات ! وعندنا مثل آخر يقول : عشان الورد ينسقى العليق .. وعلشان خاطر الرئيس الراحل يجرى انتخاب المحروس .. ومن أجل ذلك نال عدى صدام حسين كل أصوات الناخبين في دائرته الانتخابية .. بينما جهبذ سياسي عجوز ومتمرس كان رئيسا للوزراء، وكان رئيس شركة البترول في أيام نورى السعيد على ٦٠ في المائة فقط من الأصوات .. وهناك مثل يقول : أبناؤنا أكبادنا تمشي على الأرض .. وإذا انحزنا إلى أكبادنا فلا لوم علينا ولا تثريب .. ولكنه حقد الغرب علينا وتآمره ضدنا

قالت البنت الخواجاية : إذن أنت مبسوط ومنشرح الصدر ومرتاح! أجبتها : طبعا .. فهذه حياتنا ونحن أعلم بشئون دنيانا . قالت : إذن.. هذا فراق بيني وبينك . قلت : لا يا خواجاية .. لم يحن الوقت بعد .. وأرجوك لا تغضبي ولا تفقدى صبرك ، فمازلت أنتظر منك كلاما أسمعه .. ولا يزال عندي كلام أرجوك سماعه .

قالت : كلامك هايف وفارغ .. ولكن ما باليد حيلة إزاء القضاء والقدر !





١٤

طاخ طوخ..

ولله الحمد!

قالت البنت الخواجاية : يخيل إليّ أحيانا أنكم مصابون بعمى الألوان ، وأنكم لا تفرقون أحيانا بين العدو والصديق !.. أمة في وضع صعب مثل وضعكم تواجه عدوا مغتصبا وشرسا يتسلح بالقنابل النووية ويجد المساندة والمساعدة من أقوى قوة على ظهر الأرض ، وفي وضع مثل هذا لا بد من تفتيح العين للبحث عن أصدقاء ينفعون في وقت الشدة . بالنسبة للدول الكبرى لا فائدة ترجى من ورائها ، لأنها كلها واقعة تحت سيطرة ونفوذ القطب الأعظم . ما العمل إذن ؟..

هناك دول متوسطة ولكن يعمل لها ألف حساب ، بعضها دخل النادي النووي ، وبعضها على الأبواب . أهم هذه الدول في منطقتكم دولة إيران ، وهي لا تخفي عداءها لعدوكم اللدود ، وفي أمثالكم : «عدو عدوي صديقي» ، ولكنكم للأسف الشديد تناصبون صديقكم - الذي هو عدو عدوكم - العداء .. ليه ؟! لأنه يحتل ثلاث جذر عربية في مضيق هرمز .. وليس من سبيل لاستردادها إلا بأسلوبين .. إما عن طريق الحرب ، وإما بالطرق الودية ، وبالحرب واضح جدا أنه مستحيل .. لا يبقى إذن إلا الطرق الودية وأنتم وإيران بينكم من أسباب الاتفاق أضعاف أضعاف ما بينكم من أسباب الخلاف ، ولكنكم للعجب العجاب قمتم بالهجوم على إيران بدون أسباب وهي

فى عز شدتها .. ليه ؟! ما حدش عارف ! وعلى مدى ٨ سنوات دارت حرب طاحنة بينكم وبينها ، خسرت المنطقة بسببها مئات المليارات من الدولارات ، ومئات الألوف من أرواح شبابها ، واستغل العدو المشترك الفرصة ، ودمر لكم المفاعل النووى الذى كان أملكم فى الصمود والتصدى . وفى النهاية انتهت الحرب رسميا بنتيجة : لا غالب ولا مغلوب ، ولكن النتيجة الفعلية كانت « مغلوب ومغلوب! » لأن الهزيمة حدثت لكم جميعا ، والنصر كان من نصيب العدو المشترك الذى يتربص بكم جميعا

ثم حدث بعد تلك الوكسة ما هو أعجب وأغرب ! قمتم بغزو بلادكم، وهى غزوة نزحت ما تبقى فى خزائنكم ، وقتلت من تبقى من عساكركم ، وجاءت بالجيوش الأجنبية لتحتل أرضكم ومنابع بترولكم وأقامت الجيوش الغربية فى ضيافتكم ومصاريفها على حسابكم .. يعنى موت وخراب ديار!.. وبالرغم من الخيبة والوكسة عادت الأحوال إلى ما يشبه سابق عهدها ، ثم تنبه رجل من زعمائكم إلى الوضع المقلوب فقرر زيارة إيران لمد حبل الود معها ، زار ولى العهد السعودى طهران واستطاع أن يمهد الطريق إلى عودة الود القديم ، ونجح فيه . ولكن لأنكم لا تعرفون أين مصلحتكم .. غضب بعضكم ، واعتبر الزيارة عملا عدائيا بالنسبة له ، وقيل إن الذين غضبوا هم أصحاب الجزر السليبة .. طيب وماله ؟! الجزر لن تعود بالحرب كما قلنا ولكنها تعود بالود والتفاهم ورحلة ولى عهد السعودية خطوة على الطريق ، وحبذا لو خطت حكومة أخرى من حكوماتكم المتعددة - اللهم لا قر ولا حسد ! - بخطوة مماثلة ، سيكون الأثر طيبا لا محالة والنتيجة أطيب . والحمد لله لأن حسنى مبارك قام بالخطوة المرجوة ، ويا سلام لو قام بوتفليقة بنفس الخطوة ، ومحمد السادس أيضا ،

وبشار الأسد ، وأمير البحرين ، ومعمر القذافى .. لو ربطت الأمة نفسها بروابط المحبة والصداقة مع إيران لضربتم عصفورين بحجر واحد . وربما اصطدم سرب من العصافير بنفس الحجر !

أيضا .. علاقتكم بالهند كانت علاقة صداقة وأخوة فى زمن ما ، وفى ظروف ما . عندما كان حزب المؤتمر يحكم الهند ، وكان يقودها الزعيم والقائد التاريخى نهرو . والمدهش حقا أن هذه العلاقة لا تزال قائمة بينكم وبين الهند حتى الآن بالرغم من تغير الزمان والظروف .. الهند اليوم تختلف كثيرا عن الهند بالأمس . الحزب الذى يحكمها هو حزب عنصرى متعصب ، وهو يكره المسلمين كراهية العمى ، وهذا الحزب نفسه هو الذى أحرق أقدم مساجد الهند منذ سنوات بدعوى أنه أقيم على أنقاض معبد هندوسى . هذا الحزب الذى يقود الهند الآن لا فرق بينه وبين حزب الليكود اليهودى ، وكذلك فالعلاقات بين دلهى وتل أبيب هى سمن على عسل الآن ، وآخر تطوراتها أن المسئولين فى البلدين وقعا معاهدة لمكافحة الإرهاب - الإرهاب فى نظر الحزب الهندوسى المتطرف هو الإسلام ، والإرهاب فى نظر الصهاينة هو الإسلام أيضا

شىء آخر يحيرنى هو أنكم تطيلون الحديث عن الوحدة وترددون أناشيدها ، دون فعل ملموس ، فيبدو أنكم من أنصار الوحدة فى الإذاعة ، ربما لا تدركون أن مد الجسر بين السعودية والبحرين هو عمل وحدوى أكثر أهمية بمراحل من كل خطب الوحدة التى ألقاها زعماء العالم الحميرى خلال نصف قرن . ولكن يبدو أنكم جميعا شعراء وحدة ، ولا يوجد بينكم مهندسو وحدة مثلا !..

فكرتم ورسمتم مشروع مد خط حديدى يربط طنجة باليمن ، مرورا بالجزائر وتونس وليبيا ومصر ، مرورا بالجسر الذى كان مقررا

إنشاؤه لربط مصر بالسعودية .. ومع أن الطريق الساحلي جاهز لاستقبال الخط الحديدي ، إلا أنكم لم تضعوا على الأرض فلنكة واحدة من فلنكات الخط . ولو أنكم أنشأتم هذا الخط لتحققت الوحدة العربية دون الحاجة إلى قصائد ولا أشعار .. ولزمت البنت الخواجاية الصمت .. ولاح شبح ابتسامة على شفتيها سألتها : ما الذي أضحكك ؟

قالت : لا شيء .. إنها حكاية قديمة .. ولكنها تثبت أن ذاكرتكم ضعيفة وربما شاخت وأصبحت بالية . سألتها : وإيه الحكاية بالضبط ؟

قالت الخواجاية الأروبة : خلال الحرب العالمية الأخيرة ، وعندما كان الاستعمار البريطاني يسيطر على معظم أرجاء الكرة الأرضية ، ظهرت في القاهرة سيجارة كانت منتشرة بين جنود جنوب افريقيا ، السيجارة اسمها C.TOC وتعني كيب تاون - القاهرة . كان لدى الإنجليز حلم ربط القارة الافريقية كلها من القاهرة إلى كيب تاون بخط سكة حديد يمر عبر القارة كلها ، ينقل المسافرين والبضائع ، ويجعل السفر في أنحاء القارة رحلة ممتعة . وأذكر أن الصحف المصرية تناولت الموضوع في ذلك الحين ، وأذكر أن أحد كتابكم الصحفيين الكبار - لعله محمد التابعي أو محمد زكي عبد القادر لا أذكر من منهما على وجه التحديد ، فقد مضى على هذه الحكاية ٦٠ عاما كاملة .. كتب الصحافي الكبير إياه أن الاستعمار البريطاني أجهض الحلم الإفريقي بطريقة شيطانية بأن أقام خطوط سكك حديدية مختلفة في كل بلد إفريقية على طريق القاهرة - كيب تاون . خط السكة الحديد في السودان يختلف عن خط السكة الحديد في أوغندا ، وخط أوغندا تختلف مواصفاته عن خط السكة الحديد في

تنزانيا ، وخط تنزانيا يختلف عن خط سيراليون ، وخط سيراليون يختلف عن خط زيمبابوى - التى كانت معروفة باسم روديسيا - وخط روديسيا يختلف عن خط ناميبيا ، وخط ناميبيا يختلف عن خط جنوب إفريقيا .. والغرض هو إجبار القطار على التوقف عند حدود البلد الذى يتبعه ولا يتعداه . وأذكر أن - الكاتب إياه - قال فى تعليقه : «وغدا تغيب شمس الاستعمار وتنهض دول إفريقيا على أقدامها ، وعندئذ يمكن تحقيق الحلم الافريقى لتوحيد القارة التى نامت طويلا ، وآن لها أن تستيقظ وترفع رأسها » .. ومضى الزمان .. وانقضت ٦٠عاما كاملة .. ونالت دول افريقيا استقلالها .. فما الذى حدث ؟ ابتعدت دول افريقيا أكثر مما كان عليه الحال أيام الاستعمار .. وتولى السلطة فى دول إفريقيا إما رؤساء قبائل وإما قادة فى الجيش. القبائل الافريقية أكلت بعضها كما حدث فى بوروندى وفى رواندا ، وقادة الجيوش نهبوا البلد كما حدث فى نيجيريا وفى افريقيا الوسطى . لم يفكر زعيم واحد ولا قائد واحد فى ربط بلده بالآخرين . حتى افريقيا الشمالية .. افريقيا العربية .. أغلقت عيونها ووضعت غلالة على خيالها فلم تعد تحلم ، وكيف لها أن تفعل ذلك وحدود المغرب مغلقة أمام الجزائر ، وحدود ليبيا مغلقة على فترات أمام جيرانها ، وحدود السودان أيام الترابى مغلقة أمام مصر ؟!.. وبقيت عبارة C.TOC مجرد ماركة لسيجارة .. قامت إفريقيا بعد أن تخلصت تماما من الاستعمار إلى تدخين السيجارة ثم القت العقب على الأرض وسحقته بالأقدام !

وهكذا تخلصت إفريقيا من المستعمر ولكنها وقعت فى شر أعمالها .

اريتريا انفصلت عن الوطن الأم اثيوبيا ، وجنوب السودان يقاتل

اليوم للانفصال عن شماله ، وسيراليون تقوم فيها سلطتان ، نصفها تحت سلطة جيش الجنرال سنكوح ، ونصفها تحت سلطة الحكومة الخاضعة للنفوذ الأجنبي .. حتى مناجم الألماس موزعة بالعدل والقسطاس بين السلطتين ! نفس الشيء هو الأمر الواقع في انجولا وموزمبيق ، وفي نيجيريا حرب طائفية ، والمغرب انفصلت عنه جمهورية الصحراء وهي جمهورية بلا شعب وبلا مورد رزق ولكنها جمهورية والسلام !!» والجزائر تعاني حربا لا معنى لها على الإطلاق.. حربا يشنها بعض المواطنين باسم الرب ومن أجل تطبيق شرع الله . وإذا كانت الحرب على أشدها في الجزائر ، فهي تجرى في بلاد العصر الحميرى كلها .. ولكن على درجات . الحرب في مصر تغلي أحيانا وتهدأ أحيانا ، وكان حادث الأقصر هو قمة غليانها، وفي الأردن الحرب شغالة ولكن كتيمي ، وفي العراق حزب الدعوة ينشط أحيانا ويختفي غالبا ، وفي سوريا قضت اليد الحازمة على الحرب في مهدها ، دفنتها اليد الحديدية تحت أنقاض مدينة حماة ، وفي السعودية كان حادث احتلال الحرم المكي الشريف هو قمة نشاطها ، ولكنها انطفأت بعد ذلك .. ولا تزال النار خامدة حتى هذه اللحظة ، وفي الكويت النار متأججة ولكن على الطريقة الكويتية ، وكتائب المحاربين ترفع السيوف .. تهدد ولا تقاتل بها .. وأقصى جهدها منع السيدات من الاشتراك في العمل السياسي ، ومنع الصحف من نشر بعض المقالات وبعض الرسوم .

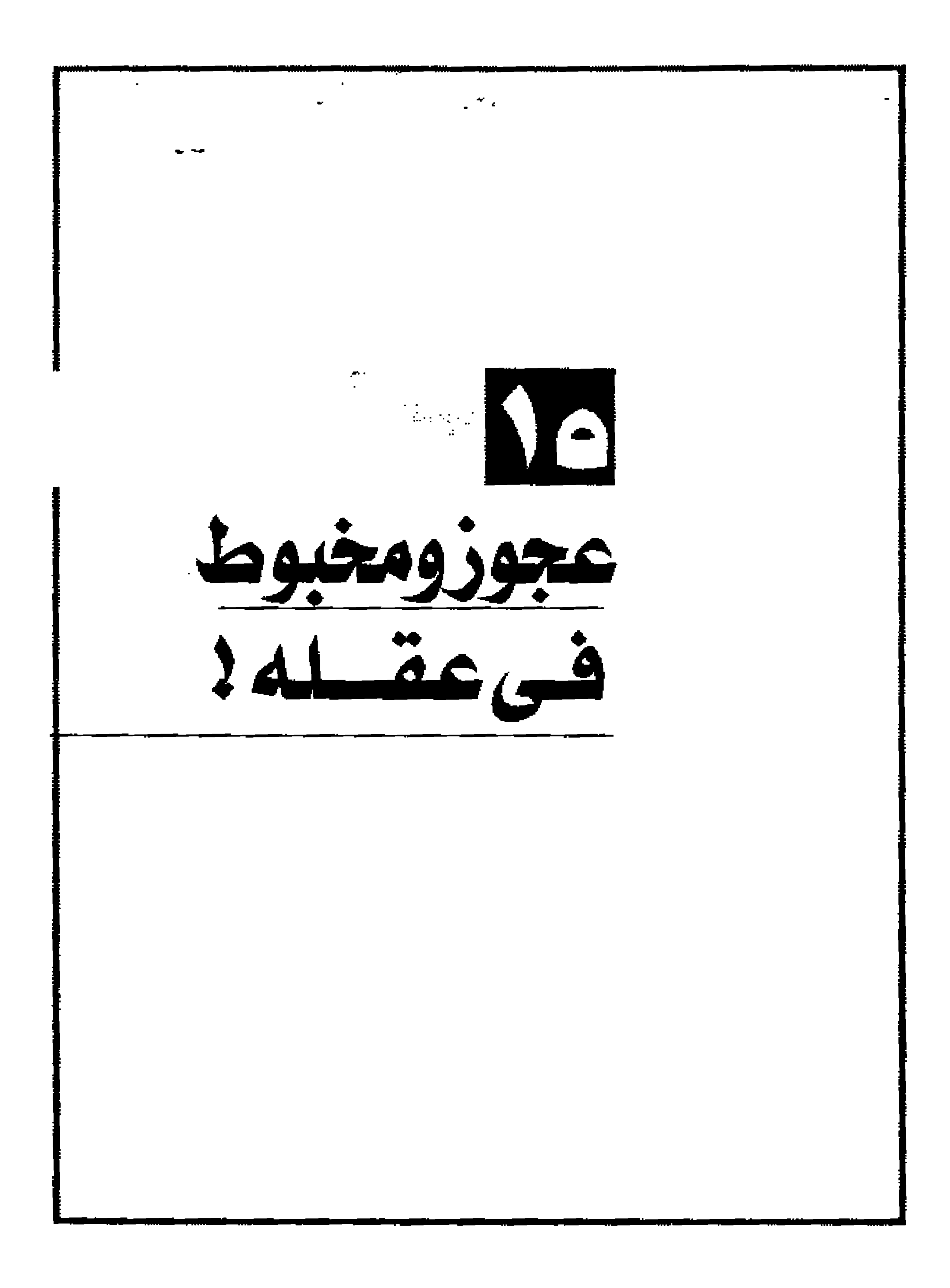
هذا الفصيل من البشر لم يسلك الطريق المستقيم إلا في لبنان .. حزب الله اللبناني هو الوحيد الذي أطلق بندقيته في الاتجاه السليم .. أطلقها في صدر العدو ، بينما أشباههم في كل مكان في أرجاء العصر الحميرى يطلقون النار في صدور مواطنيهم بحجة أنهم من

الكفار وهم وحدهم الذين يعرفون طرق السماء ويفهمون لغة الرب !.. وهى دعوى لا سند لها ولا أساس ، وهى محاولات طائشة لا تقيم نظاما ، ولا تنشر عدلا ، ولا تحدث رخاء ، ولا تجلب سلاما .. وأقصى ما تستطيع تحقيقه هو .. طاخ طوخ .. ولله الحمد ..!!

قلت للبنت الخواجاية : هل لديك ملاحظات أخرى أم فرغت جعبتك وأصبحت خاوية على عروشها ؟

قالت : الجعبة لا تزال متخمة .. والملاحظات على قفا من يشيل ، ولكن يبدو أنك لم تعد تحتمل ونريد أن نفض هذا النقاش الذى استمر بيننا على مدى هذه الشهور الطويلة .. قلت لها : بالعكس .. العبد لله على استعداد لمواصلة النقاش على الفور .

قالت : بل نؤجله إلى الغد .. باعتبار أن الغد يوم آخر !



١٥

عجوز ومخبوط فى عقله !

قالت البنت الخواجاية متحدية ومتجنية : وهكذا ترى أنكم بأفعالكم وتصرفاتكم أصبحتم مجرد جثة حية ، جثة ينقصها النفس ، رغبتكم لا تثير أى علامة استفهام ولا تستشارون وأنتم حضور .

الأصدقاء لا يطمعون فى نخوتكم ، والأعداء لا يتقون غضبتكم فأنتم لا لكم فى العير ولا فى النفير .

قلت للبنت الخواجاية : على مهلك أيتها البنت الخواجاية ، لو كنا كما تزعمين لما تطاول علينا رئيس الحاخامات فى إسرائيل فوصفنا بأننا ثعابين سامة ، وأن الله خلقنا فى البداية ثم ندم بعد ذلك ـ هذا الهجوم من جانب كبير الحاخامات يثبت أننا أصحاب شوكة ، على أساس أن الشجر المثمر يكون عرضة لقذفه بالحجارة . ضحكت البنت الخواجاية وقالت : لكن رئيس الحاخامات اليهودى الذى ألقى بالطوب عليكم هو شيخ طاعن فى السن وخرف ومخبوط فى عقله . وهو لا يدرى ماذا يقول بالضبط ولكن فى حديثه شىء صحيح هو وصفكم بالثعابين وصحيح أنكم ثعابين ولكنكم ثعابين منزوعة الأنياب وغدة السم مبتورة وفارغة . فأنتم وإن كان لكم شكل الثعابين فإن لكم طبيعة الفئران : كيف تجرؤين يا بنت يا خواجاية على هذا القول المغلوط ؟ ألم تسمعى خطبة أحد زعماء القبائل تبعنا عندما اتهم

جيرانه بالتآمر عليه ووصفهم بأهل العار والشنار ، وردت عليه قبيلة صغيرة بإعلان التعبئة العامة وحشدت قواتها المسلحة لمواجهة العدوان .

قالت البنت الخواجاية : هذا الذى حدث على الناحيتين ما هو إلا تمثيلية كوميدية . زعيم القبيلة الذى هدد لا يملك شيئا ولا يستطيع أن يحرك حتى مقعدا فى مكتبه . إنه محاصر مغلوب على أمره وشعبه يواجه الكوارث ويعانى الأزمات ، والقبيلة التى استنفرت قواتها المسلحة تعرف هذه الحقيقة أكثر من غيرها ، كما أنها ليست فى حاجة إلى استنفار أى شىء لأن الجيوش الأجنبية تعسكر على أرضها وتحميها من أى عدوان . فلا الزعيم الأول قادر على فعل شىء ولا القبيلة الصغيرة فى حاجة إلى حشد القوات .

قلت للبنت الخواجاية الحاقدة : طيب ما رأيك يا خواجاية فى القمر الصناعى تبعنا الذى أطلقناه فى الفضاء ، أليست هذه خطوة تاريخية ، أليست نقلة حضارية ما رأيك فى هذا الإنجاز ؟ فنحن لم نكتف بإطلاق قمر واحد ولكننا قمنا بإطلاق قمرين . هل عندك ما تقولينه فى هذه المناسبة ؟

لزمت البنت الخواجاية الصمت فترة ثم قالت : إذا كان إطلاق القمر الصناعى فى الفضاء إنجازا حقيقيا فما هو دوركم بالضبط فى هذا الإنجاز ؟ هل قمتم بتصنيع القمر ؟ هل أطلقتموه من قاعدة الصواريخ فى بنها أو فى بنى سويف ؟ وإذا اعتبرتم إطلاق القمر نقلة حضارية ، فما علاقتكم بهذه النقلة ؟ أنتم لم تفعلوا شيئا سوى أنكم طلبتم من شركة فرنسية أن تصنع لكم قمرا صناعيا ، وطلبتم من شركة أخرى أن تطلقه بواسطة صاروخ فى الفضاء . كل دوركم أنكم دفعتم التكاليف وجلس بعضكم مع الفنيين ساعة الانطلاق ، فلما

جاء الوقت المحدد وانطلق الصاروخ صفقتم بشدة وفتحتم أفواهكم بابتسامات عريضة . أنتم مجرد زبائن سقع وطيبين ، ووضعكم يشبه وضع الرجل الذى اشترى سيارة وأطلق عليها اسمه ، فهل هو من صناع السيارات ؟ هل يصبح رأسه برأس فورد ودايملر وبنز ، ولكن عيبكم أنكم تضحكون على أنفسكم ، فتتصورون أن شراءكم قمرا صناعيا يجعلكم من رواد الفضاء ، ثم ماذا تفعلون بالقمر الصناعى وسط الخيبة التى حطت عليكم فى المجالات الفنية ؟

مسلسلات هى جزء من حكاوى ست عديلة ، وسهرات غنائية أبطالها من الهواة الذين يمارسون الغناء فى الحمام ، ونشرات أخبار ليس فيها أخبار ، وبرامج حوارية هى مجرد لت وعجن .

وعلى مدى الأربع والعشرين ساعة لا يوجد فى برامج التليفزيون إلا برنامج واحد هو برنامج حمدى قنديل وأحيانا مفيد فوزى ، وفيما عدا ذلك لا شىء يسر القلب ويشرح الصدر ، والتليفزيون ليس بالأقمار الصناعية ولكن بالتخطيط والمضمون والأهداف . عندكم قناة الجزيرة .. صحيح أن أهدافها مشبوهة ولكن تخطيطها ممتاز ومضمون جعل منها نموذجا يحتذى كقناة إخبارية . ترى ما هى أهداف قنواتنا التى أصبحت أكثر من الهم على القلب ؟ لا شىء سوى التسلية . وما هو مضمونها ؟ لا شىء سوى الهيافة والسذاجة والتسطيح .

وسكتت البنت الخواجاية وقالت :

هل غضبت منى ؟! ثم واصلت حديثها قائلة : هدفى ليس إغضابك ولكن تبصيرك بأحوالكم وفتح عينيك على الحال المايل . قلت لها وأنا أكظم غيظى : طيب ما تقولى يا خواجاية افرزى سمك كله ولا تفرزيه نقطة نقطة . قالت : ما دمت وصفت صراحتى بأنها السم ، فأنت

زعلان بدون شك ، وما دمت زعلان فأنا سألتزم الصمت .. طيبت خاطر البنت الخواجاية واعتذرت لها ، وقلت : لا تؤاخذيني ، تفضلي وقولي نقدك وكلي آذان صاغية . قالت : هل سمعت عن الوزير الذي سافر إلى كندا لاستئجار أرض لزراعتها قمحا ، هذا الوزير يستحق أن يحجز لنفسه في التاريخ مكانا تحت يافطة « عجائب وغرائب » . ولماذا يا خواجاية لا تكون رحلته إلى كندا واقتراحه بزراعة القمح هناك مجرد اجتهاد ، ولكل مجتهد نصيب . قالت البنت وقد أصبحت أكثر جرأة : شوف يا حماري الصغير ، المفروض أن الوزير يكون على دراية بتاريخ بلده ـ وبالخصوص بالتاريخ الذي يتعلق بوظيفته ، ألا يعرف الوزير أن في بلادكم صحراء مترامية الأطراف ؟ قلت : الوزير يعرف هذه الحقيقة بدون شك . قالت : وهل يعرف أن هناك تجربتين حدثتا في الماضي القريب لزراعة هذه الصحراء ؟ قلت للبنت الخواجاية : وكيف كان ذلك ؟ قالت : أول تجربة حدثت منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما ، عندما قام محافظ الشرقية وقتها محمود شريف بزراعة مساحة من الصحراء الشرقية ، وكانت النتيجة مذهلة قلت للبنت الخواجاية : هل تقصدين أن القمح نبت في الصحراء القاحلة ؟ قالت البنت الخواجاية .. لم ينبت فقط ولكنه نبت بكميات وفيرة : قلت : ولكن كيف حرث الأرض ؟ وكيف روى الزرع ؟ قالت البنت الخواجاية لم يحرث ولم يسق . وضع البذور في الصحراء ، ثم ترك مهمة الري للمطر . ثم جاء المحصول بمقدار نحو ثلاثة أرادب للفدان الواحد . ولكنك ـ يا خواجاية ـ لم تشرحي لنا كيف سوى الأرض ومهدها ، وما هو الزمن الذي استغرقه لإنجاز هذه المهمة ؟ قالت البنت الخواجاية : لم يمهد ولم يضرب فأسا واحدة في الأرض ، ترك كل شيء على حاله الهضاب هضاب والتلال تلال والحفر

الكبيرة ظلت كما هي - قلت للخوجاية : طيب وهل كرر المحافظ هذه التجربة مرة أخرى ؟

قالت البنت بأسف : لا .. لم يحدث لأن المحافظ نقل محافظا للقاهرة في العام التالى . ولم يفكر المحافظ فى القيام بمحاولة ثانية ، لأنه لم يكن قادرا على زراعة أرصفة القاهرة . قلت لها .. هذه محاولة فأين المحاولة الثانية ؟

قالت المحاولة الثانية كانت أكبر وأنجح ، وكانت الصحراء الغربية هي مسرحها ، في المنطقة التي تحيط بمدينة الحمام على الساحل الشمالي ، والجيش المصرى هو الذى قام بالتجربة . وأشرف عليها ضابط كبير برتبة لواء اسمه سعد أبو ريده . وتمت زراعة مساحة تبلغ ٣٠ الف فدان على سبيل التجربة ، وكانت النتيجة حصد أكثر من ٩٠ألف أردب قمح من الصنف الممتاز ، سألتها : ولكن لماذا اكتفى بثلاثين ألف فدان فقط ، لماذا لم يزرع مساحة أكبر ؟ قالت : لأنه لم يكن واثقا من النتيجة ، ولذلك اكتفى بزراعة هذه المساحة على سبيل التجربة . إذن فقد زرع مساحة أكبر في المحاولة الثانية . قالت البنت : لم تحدث محاولة ثانية ولا محاولة ثالثة ، لأن اللواء سعد أبو ريدة نقل إلى المنطقة الشرقية وصار قائدا للجيش الثانى ، وهو الآن يعمل محافظا للبحر الأحمر ، قلت للبنت وأنا في حالة ذهول مما أسمع : وهل تمت تجربة سعد أبو ريدة بنفس المواصفات التى تمت بها تجربة محمود شريف ؟ أقصد بدون تسوية للأرض وبدون آلات حرث وبمياه المطر فقط . قالت : بالتمام والكمال .

قلت : هذا يعنى أننا يمكننا زراعة مليون فدان في الصحراء فنحصل على ثلاثة ملايين أردب من الصنف الممتاز ، قالت البنت الخواجاية : هذا هو الأمر الذى كان يجب على الوزير أن يدرسه ثم

ينفذه ، ولكنه بدلا من ذلك سافر إلى كندا وعلى الدرجة الأولى ليعاين الأرض التى سيشتريها ويزرعها قمحا . قلت لها : أليس هذا غريبا ؟ قالت البنت الخواجاية : بالعكس أنا أراه شيئا طبيعيا . قلت : كيف ؟ السفر إلى كندا أكثر فائدة من السفر إلى الصحراء ، وفى السفر إلى كندا سبع فوائد ، بدل سفر وشمة هوا وتسوق وسياحة انبساط ، قلت : طيب والقمح ؟ قالت سيوجد بإذن ربى ، إذا لم يكن من الصحراء فلا بأس أن يكون من كندا ، وإذا لم يكن من كندا فأسواق العالم مفتوحة على « البحرى» ، وإذا لم يكن من أمريكا فلا بأس أن يكون من استراليا . قلت : ومصلحة البلد ؟ قالت : هذه أشياء رجعية ولا تليق بالعولمة وآليات السوق والجات والثعلب فات فات وفى ديله سبع لفات . قلت لها : قاتلك الله يا خواجاية ، أنت لست بنى آدمة ، أنت بومة تنعق ، أنت شؤم والمشى معك خسارة وضياع . ولذلك سأفكر بعمق فى علاقتنا وأعتقد أنه فى القريب العاجل سيكون هناك فراق بينى وبينك ، قالت البنت : بركة يا جامع اللى جت منك ماجتش منى !





١٦

أكل القطط والكلاب؟

قلت للبنت الخواجاية .. على رسلك يا بنت المدبوبة .. إذا كنت ستواصلين هجمتك الشرسة ضد كل مظاهر حياتنا ، فمن الأفضل أن تكفى عن المناقشة والحوار - ولا تنسى أن العبد لله هو الذى جاء بك إلى العصر الحميرى ولم أكن أتصور أنك ستصبحين منهم يوما ما - قالت : وكيف تصورت أننى أصبحت واحدة منهم ؟ قلت : من أقوالك ، كل الألوان عندك انحصرت فى الأسود والأبيض ، لم يعد فى دنيا الألوان فاتح ورمادى ومقلم كاروهات - ما الذى حدث لك بالضبط ؟!

قالت : أفعالكم السودة وعمايلكم المهببة . قلت لها : وليس لعمايلنا نظير فى مختلف بلاد الله ؟ أجابت : عندكم عمايل تنفردون بها . ولا أستطيع وصف هذه العمايل ، هل هى عبط ، أم هبل ؟ أم جريمة ؟! قلت : مثل ماذا ؟ قالت : أنت تعلم أنكم بلد مصنف تحت بند البلاد الغليانة ، وشعبكم نسبة كبيرة منه تعيش تحت خط الفقر . وبعض الأسر عندكم تطعم أبناءها جلودا متخلفة من عمليات التنظيف عند الجزار ، وكيلو الجلد يكلف عشرة جنيهات وليست له أى قيمة غذائية. وبعد ذلك تشتركون فى الأوليمبياد وتطمعون فى الحصول على ميداليات ذهبية وفضية ! ومع ذلك فهذه الأسر التى تطعم أبناءها

الشغت والجلود حظها أحسن من غيرها . لأننى شاهدت أسرا تشترى من الأسواق الشعبية أظافر الدجاج ، وهم يضعون كل الأظافر فى عبوة يربطونها بأستك ، وكل ربطة بخمسة وعشرين قرشا ، وربة البيت تخلط هذه الأظافر بالخضار لخداع الأطفال بأنهم يأكلون فراخ ! قلت : ما العيب فى ذلك ؟ وهل نحن وحدنا الفقراء فى هذا العالم ، قالت : لا بالتأكيد ، ولكن فقراء افريقيا السوداء يخرجون إلى الغابة فى جماعات ، ويعمدون إلى إزعاج الأسد فيفر تاركا فريسته لينقض عليها هؤلاء الفقراء ويقطعون منها أجزاء لم تمسها أسنان الوحش ، وهى على كل حال أطعمة طازجة بالرغم من اشتراك الأسد معهم فى نهشها ، وفقراء السواحل فى آسيا وفى أمريكا اللاتينية يخرجون إلى البحر فيصطادون أى شىء .. أسماك .. حيوانات بحرية .. تماسيح .. أى شىء وأى حاجة لإطعام الأطفال ، ولكنهم لا يأكلون أظافر الفراخ مهما يحدث . ولكنكم تأكلونها وتقبلون أيديكم ظهرا وبطنا طالبين من المولى الكريم أن يديمها عليكم نعمة ! قلت : هذا من فضل الله علينا ، كما أنه دليل قناعة وصبر وفلسفة عميقة حمت مصر من الانقراض فى أزمنة الجوع والقحط قالت البنت الخواجاية : ما قلناش حاجة ـ ولكن ما رأيك فى ميزان المدفوعات بتاعكم الذى يسجل عجزا خطيرا بين الواردات والصادرات ؟ وما رأيك أن من بين الواردات طعام لزوم القطط والكلاب بالشىء الفلانى ، وجيلاتى من سويسرا ومن إيطاليا؟ قلت : ومـاله ؟!.. والله سبحانه وتعالى يحب لعبيده أن يأكلوا من خيراته . قالت : مفيش بأس .. ولكن فى حَالتكم هذه لا تكون أطعمة القطط والكلاب من خيراته ولكنها تكون عنوانا على خيبتكم وفساد تخطيطكم . خصوصا وأننى لم أر فى بلادكم قططا مرفهة ولا كلابا

مرتاحة . وهذه الحيوانات عندكم تعيش عيشة الصياع . وأطفالكم يلعبون معها لعبة تنتهي غالبا بالموت ، يشوطونها بأحذيتهم ويقذفونها بالطوب والحجارة . وأطفالكم الصغار يخنقون القطط والكلاب حديثى الولادة حتي يقتلوها ، فأين هى الكلاب والقطط التى يستوردون لها هذه الأطعمة من الخارج ؟ لابد أنها أعداد بسيطة من هذه الحيوانات تعيش عند بعض الأسر المرتاحة . وفى هذه الحالة تكون هذه الأطعمة المخصصة للكلاب والقطط تتسرب منها كميات كبيرة للاستهلاك البشرى . يعرضونها للبيع عليهم كلحوم باردة ولأنها رخيصة بالنسبة لسعر اللحوم البلدية ، فهى سوف تلقى رواجا عند الطبقة الوسطى التى تتصور أن كل ما هو مستورد جميل ونظيف وجيد وصالح للأكل والهضم ! وتعالى صوت البنت الخواجاية وقالت : ثم خذ عندك .. العالم كله يحارب التدخين ويمنعه الآن فى وسائل المواصلات وفى داخل الفنادق ولا يسمح به إلا في الشارع ، وبعض المحاكم الأمريكية أصدرت أحكاما بمليارات الدولارات غرامة على بعض شركات السجائر ، وفى نفس الوقت أنتم تستوردون حلويات على هيئة سجاير للأطفال . يعنى ببساطة أنتم تعدون أطفالكم للتدخين فى المستقبل . وهى عملية أشبه بتدريب الجيل الجديد على الانتحار . وما يحدث فى السجائر يحدث أيضا فى السيارات الخاصة . كل العالم المتقدم يجعل امتلاك سيارة خاصة نوعا من أنواع التعذيب . مخالفة الوقوف فى الممنوع بالشيء الفلانى . فإذا تأخر المواطن المخالف فى دفع الغرامة في الوقت المحدد يجرى مضاعفتها على الفور لتنتهى إلى أرقام فلكية تضطر صاحب السيارة المخالف إلى بيعها بأقل من سعرها ليريح ويستريح . والحصول على رخصة قيادة أسهل منه الحصول على صك غفران يضمن لصاحبه دخول الجنة !.. والسير

بسيارة ناقصة فانوس أو رفرف أو برفرف مضروب أو مبطوح جريمة يسحبون رخصة القيادة من أجلها .. وكلها إجراءات تجعل ملاك السيارات يتخلصون من سياراتهم . ولكن عندكم الأمر مختلف .. وبالرغم من الازدحام والتلوث تجد سيارات بلا أبواب أحيانا ، وسيارات تنفث دخانا ولا قطارات السكة الحديد ، وتصدر أصواتا ولا صوت وابور الزلط . كما أن الحصول على رخصة قيادة أسهل من شراء باكو أسبرين من أجزخانة ! ولذلك ستجد سيارات تجرى على الطريق موديل الأربعينيات وسيارات لا تستطيع أن تحدد لها «موديل » على الإطلاق! وسيارات ليس لها لون ، وسيارات بدون أرقام . وكله ماشى وكله مبسوط . ولذلك يظل حلم كل مواطن عندكم امتلاك سيارة حتى لو كانت فى الأصل صندوق شاى فهى تبقى حلما على كل حال . وسيظل هذا حالكم ما دام سعر البنزين عندكم هو خمس سعر البنزين فى بريطانيا وهو ربع السعر بالنسبة لفرنسا ودول أوروبا وأن المخالفة بسيطة ومقدور عليها ، وأن استخراج رخصة قيادة أسهل من استخراج ورقة من فئة العشرة قروش من حافظة نقودك . قلت : نحن نريد أن نبحبحها على الناس وأنت تريدين إغلاق الأبواب فى وجوههم ؟! قالت : الإغلاق ليس عيبا .. إنه أول خطوة نحو النظام ، والفتح إذا لم يحط بضوابط كثيرة كان بابا إلى الفوضى

قلت : ألست من بلاد تعشق الحرية وتطبق الديمقراطية وتدعو للانفتاح ؟!

قالت : نعم وبكل تأكيد ، ولكن الانفتاح غير الانفشاح . وسأضرب لك مثلا ، هل تعرف أن السوق تعرض علب فول مدمس واردة من أمريكا . وعلبا أخرى واردة من لبنان ؟ هل انتم فى حاجة إلى من

يعلمكم كيفية تدميس الفول ؟! هل تعلم أن من بين المعروضات «طرشى» وارد الخارج . أين طرشى عم عبد النبى بتاع شارع الصناديلي في الجيزة ؟! وأين طرشجي النجوم في مصر القديمة ؟! وأين طرشجي الحسين ؟!

لقد فقدتم هويتكم عندما فقدتم أصولكم . انظر إلى مدارس هذه الأيام وقارنها بمدارس زمان ، أين كُتاب القرية والشيخ المعلم أبو عصايا لهلوبة بين أصابعه ؟ المدرسة التى تعلم فيها أعظم رجالات مصر في العصر الحديث ، من رفاعة رافع الطهطاوى إلى طه حسين ونجيب محفوظ . تسأل أى طفل الآن عن مدرسته فيجيبك : أنا فى «كى جى ون» أو «كى جى تو» ويحكى لك عن «المس» التى تعلمه ، فإذا أراد أن يستعرض عبقريته أمامك سرد على مسامعك الأرقام من واحد إلى عشرة باللغة الإنجليزية . أين تلاميذ المدارس الأولية زمان الذين كانوا يفرقون بين شعر حافظ وشعر شوقي ؟! ولكن الآن هل تنتظرون أن يتخرج من بين تلاميذ «المس» فلانة شعراء أو أدباء ؟!

هل تتصورون وجود كامل الشناوى آخر أو إبراهيم ناجى آخر ؟ هل يكون لدينا بيرم تونسى جديد أو عبد الوهاب طبعة ثانية ؟ هل التطور فى انجلترا جعل التعليم باللغة الفرنسية ؟ إن فرنسا تعاقب من يرفع على محله لافتة بلغة غير الفرنسية . ونصف شركاتكم الآن بلغة غير عربية . كأن العربية أصبحت عيبا واستعمالها لا يتفق مع روح العصر !.. أنتم بلد الأزهر وسرة العالم العربى ومنارة العالم الإسلامى أصبح تعليم أولادكم يعتمد كل الاعتماد على اللغة الإنجليزية ؟! واللغة الإنجليزية عظيمة ومفيدة - ولا جدال - ولكنكم عرب أولا .. واللغة الأم هى اللغةالعربية . سألنى مرة صديق من بلد من بلاد العصر الحميرى أن أختار لولده كلية يتعلم فيها فى أمريكا

وسألته : وهل سيعمل فى أمريكا أم أنه سيعمل هنا ؟ أجابنى : بل سيعمل هنا ، قلت : إذن فليتعلم هنا ليسهل عليه التعامل مع الحمير الذين هنا . ولم يستمع صديقى للنصيحة وأرسل الولد للتعليم فى أمريكا ، وعندما جاء ليمارس عمله هنا لم ينجح فى التعامل مع الحمير ، وضاع الولد .. لم يصبح حمارا، ولم يصبح حصانا ولكنه صار بغلا وضاع بين الاثنين !! قلت للبنت الخواجاية : إذن أنت تريدين أن تمدى لنا جسرا نحو الماضى بينما نحن نعمل على مد جسر نحو المستقبل . قالت البنت على الفور: لا يوجد مستقبل بدون ماض ، فالماضى هو القاعدة وتستطيع أن تقيم على القاعدة أى بناء . أما إذا لم تكن هناك قاعدة فلا فائدة من أى بناء تقيمه على الهواء. قلت للبنت الخواجاية : ما دمت ناصحة وفالحة وتعرفين الكفت ، بماذا تنصحين للخروج من الأزمة الاقتصادية ؟! قالت : أول هام أن تكون هناك خطوط واضحة ومعروفة .. ثم سكتت وسألت : هل رأيت خطوط التماس فى لعبة كرة القدم ؟ أجبتها بالإيجاب ، قالت : طيب .. لو تجاوزت الكرة الخط وتجاهل حكم المباراة خروجها وواصل اللعب، فماذا تكون النتيجة ؟! قلت : تصبح المباراة فوضى . قالت البنت الخواجاية : هذا هو الحال فى أى مجال.. من ينصب على البنوك ويهبر أموالا ينبغى توقيع أشد العقاب عليه ، من ينصب على الحكومة ويتقدم بمشروع نصب فى نصب كمشروع حديد أسوان يقع تحت طائلة العقاب .. مدير البنك الذى يأمر بإقراض النصاب دون دراسة وافية لمستنداته يجب أن يقضى بقية حياته على الأسفلت .

قلت : ولكن البعض يقول إن هذه الإجراءات تتنافى مع مناخ الحرية والديمقراطية والرأى والرأى الآخر . قالت البنت : هل هناك بلد على ظهر الأرض تتمتع بهذه الصفات أكثر من بريطانيا ؟ قلت :

لا.. في الحقيقة لا يوجد غيرها . قالت : إذن حاول أن تكسر إشارة المرور في انجلترا وانظر ماذا سوف يحدث لسيارتك ! احتس عدة كؤوس من الخمر وقم بقيادة سيارتك وانتظر جزاءك !. ثم قالت : وعلى فكرة .. هل تعلم أن كل البنوك الكبرى في انجلترا وفي كل أنحاء المملكة المتحدة بها أجهزة خاصة لتحصيل القروض من المتعثرين في السداد ؟ قلت : كلهم ؟ قالت : لا .. ولكن أصحاب القروض الصغيرة ، من عشرة آلاف إلى مائة ألف جنيه استرليني . وهذه الأجهزة كل أعضائها من رجال البوليس السابقين . وكل واحد فيهم كف إيده كالمرزبة ، وعضلاته في حجم البطيخة الجيزاوي ، ورأسه كرأس التوم السوداني . وهم يقومون بزيارة النصاب أولا وتكون الزيارة ودية ، وينصحون أولا بتسديد الدين ولو على أقساط مقدور عليها . فإذا لم يفعل .. فذنبه على جنبه ! هل تعلم أن أغلبية المقترضين قاموا بالتسديد بعد زيارة النصيحة ؟!. قلت لها : ولكننا نتحاشى العمل بهذا الأسلوب خوفا من إدراج اسمنا في كشف الدول التي لا تحترم حقوق الإنسان . قالت البنت ضاحكة : حقوق الإنسان هذه تشبه حكاية الذئب والخروف ، قال الذئب للخروف : لقد عكرت الماء عليّ عندما شربت من النهر بالأمس ، وقال الخروف .. لم أكن هنا بالأمس .. فقال الذئب : إذن حدث هذا منذ أسبوع ، قال الخروف : لم أحضر إلى شاطيء النهر منذ عام مضى . قال الذئب : إنه هو أبوك الذي عكر الماء عليّ أو لعله أخوك أو ابن عمك . قال الخروف ليس لي أقارب على الإطلاق ، قال الذئب : لابد أنه فرد من عائلتك ولابد أن أفترسك ، وهكذا نرى أن اسم بلدك سيسجل في كشف الدول التي تنتهك حقوق الإنسان حتى ولو كانت تحكم بالعدل والقسطاس ! هل تعرف الجنرال بينوشيه حاكم شيلي سابقا ؟ قلت :

نعم أعرفه . قالت : في عهده اختفى عشرات الألوف من المواطنين ، قتلوهم في السر ودفنوهم في قبور مجهولة . وشيلي نفسها على بعد فركة كعب من أمريكا ، ومع ذلك لم تلحظ أمريكا شيئًا ولم تر شيئًا ، ولم تسمع شيئًا . ولا يزال الجنرال حيًا يرزق يكافح ليتحاشى محاكمته على الجرائم التى ارتكبها . هل تسمع عن شاه إيران ؟ قلت: نعم اسمع ! قالت : جهاز السافاك ارتكب كل الجرائم التى نعرفها والتى لم نسمع بها بعد . ومع ذلك لم يرد اسم إيران في أى كشف من الكشوف إياها . وعاش الشاه وسقط عهده ومات وهو في أمان من ظهور اسمه في هذا الكشف . وأى دولة يظهر اسمها ليس للجرائم التى ارتكبتها ولكن حسب نية الذئب وما يضمره للخروف . هل تعلم بالممارسات التى تقوم بها إسرائيل ضد عرب فلسطين ؟ قلت : نعم .. أسمع ببعضها ، قالت : هل قرأت اسم إسرائيل في أى كشف ؟ قلت : لا . قالت : إذن المسألة ليست هى ماذا تفعل ، ولكن ما هو رأى الذئب فيك . وعلى كل مجتمع أن يحمى نفسه دون اللجوء إلى إجراءات لا لزوم لها . ومن واجب المجتمع أن يعاقب المخالفين ورجال العصابات ، ولكن دون مبالغة ، أما إذا تهاون فذنبه على جنبه، إنه سيخسر نفسه وسيجد نفسه في النهاية فى الكشف إياه !

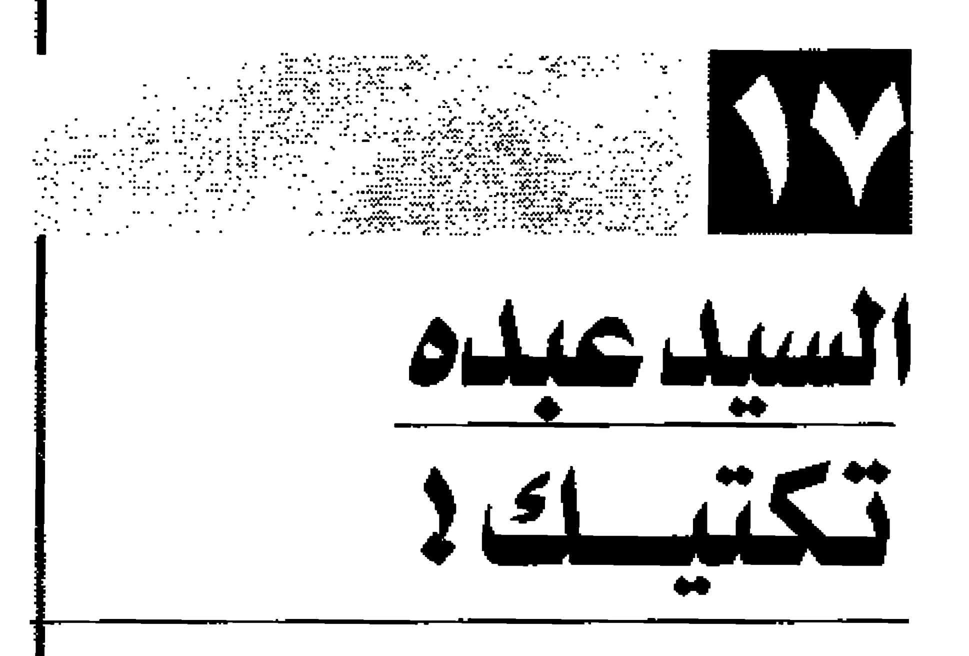
قلت للبنت الخواجاية : إذن ما هو الحل ؟ أجابت : الحل هو وجود حقيقى للخطوط التى ينبغى عدم تجاوزها . وإذا وجدت هذه الخطوط سيصل الجميع إلى بر الأمان . أما إذا تركتم المسائل سداح مداح فستكون النهاية غير سعيدة . لأنكم لن تحافظوا على مصالحكم ، ولن تستطيعوا النجاة من غدر الذئب .

قالت البنت الخواجاية : أنا زهقت من أحوالكم ، وتكاد روحى تخرج من عجائب أموركم ، وإذا كنت تريد نصيحة بالفعل فأنا قلتها

لك أما إذا كان الهدف هو الدردشة فقط فأنا لست من هواة الدردشة، كما أنني لا أصلح لها . قلت للبنت الخواجاية : ومن قال لك إنني من هواة الدردشة ؟ قالت : لم يقل لي أحد ولكني أعلم أنها هوايتكم فأنتم تتحدثون وتعيدون الحديث نفسه ، بينما إسرائيل تسلح نفسها بالغواصات النووية ، بنتها ألمانيا لها وسلمتها لحكومتها . ولو قامت الحرب الآن لا سمح الله .. فبماذا ستقاتلون هذه الغواصات النووية ؟ إسرائيل تتسلح من شعر رأسها إلى قدميها ، وأنتم أغنى من إسرائيل ومواردكم أكثر منها .. وأنا أعلم أنكم تشترون السلاح بالمليارات .. ولكنكم - وفي بعض الجهات من عالمكم - تشترونه وتضعونه في المخازن ، والسلاح مكانه الطبيعي ليس المخازن ، السلاح للتدريب والاستعمال في المعارك ، وأذكر أن الجيش العراقي بعد احتلاله للكويت حصل على أسلحة جديدة كانت في المخازن وفي صناديقها . أعرف حكايات عن تحويش الفلوس وتحويش الذهب ولكني لم أسمع شيئا عن تحويش السلاح !

قلت للبنت الخوجاية : في الحقيقة يا خوجاية أنا ضقت بك ، كما أنني مش ناقص هم ، ولم يعد لدى استعداد لفوران الدم الذى تسببينه لي بكلامك الذي يبعث على الغم والنكد .. وإذا لم تتوقفي عن هذا الأسلوب سأضطر إلى خلع قبعتي لأقول لك « جود باي يا خواجاية » .

ويبدو أن شاعركم كيبلينج كان على حق حين قال : الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا . وفتحت عيني فلم أجد البنت الخواجاية ، دخلت غرفة نومها وتمددت وراحت في سبات عميق !



١٧

السيد عبده تكتيك!

قالت البنت الخواجاية وهى تجمع ملابسها وحاجاتها تمهيدا للرحيل : سأتركك الآن يا حمارى الصغير لأننى سئمت العيش معك ، وضقت بتنفس الهواء الفاسد فى بلاد الحمير . قلت لها : وما الذى دعاك للرحيل الآن ؟ وما الذى جد علينا فى هذا الوقت بالذات ؟ مع أنك كنت فرحانة ومبسوطة بالعيش معنا وعلى طريقتنا .

قالت البنت الخواجاية : ألا تشم الروائح الكريهة التى من حولك ؟! ألا ترى حالة الانهيار والتفسخ التى تخيم عليكم ؟! قلت للبنت الخواجاية : هل تقصدين الانتفاضة الفلسطينية والاعتداءات الإسرائيلية ؟ قالت : بالعكس .. هذه الانتفاضة قد تكون الشمعة الوحيدة التى تبدد الظلمات التى تحيط بكم . وأعجب شىء فى حياتكم أن الأخطار المحدقة بكم لا تأتى من عدوكم .. ولكنها من أفعالكم قلت : وكيف هذا يا خواجاية ؟ هل هى نكتة أم فزورة ؟ قالت : لا نكتة ولا فزورة ، ولكنها حقيقة دامغة .. رغم وضوحها فعيناك لا ترى شيئا بسبب الغشاوة التى تحجب الرؤية عنكم جميعا . قلت : زيدينى إيضاحا يا خواجاية .. فأنا فى حاجة إلى شرح أفهمه ، وفى حاجة إلى عدة نقاط أضعها على الحروف .

قالت الخواجاية ، منذ اندلاع الانتفاضة حدث تقارب بين الفصائل المناضلة ، جمع الشارع بين السلطة والمعارضة ، حماس والجهاد وحزب الله ، الكل فى واحد على رأى توفيق الحكيم .. ولكن لم يلبث العقد أن انفرط .. اختلف الجميع حول مؤتمر شرم الشيخ ، ووقع الخلاف قبل أن يجتمع المؤتمر ، وقبل أن يجرى بحث أى موضوع .. وتعالت الصيحات من كل جانب ، صيحات تتهم البعض بالخيانة وتتهم بالبعض الآخر بالتآمر . ودهشتى لا حدود لها ، وأريد أن أعرف كيف اكتشفوا هذه الحقائق .. هل ضربوا الرمل ؟! هل وشوشوا الودع ؟! هل فتحوا المندل ؟! هل اتهام الآخرين بالخيانة أمر طبيعى عندكم ؟! ومن الذى من حقه اتهام الآخرين بالخيانة ؟! هل هو أبو الوطنية ؟! هل هو قاضى محكمة الشرف القومية ؟!. ولكننى بدراسة سريعة لأوضاعكم اكتشفت أن الاتهام بالخيانة فى قاموسكم السياسى أسهل من الاتهام بالإهمال ! من أغرب الأشياء أن لديكم واحدا كان يمثل مسئولية متوسطة فى الإدارة ، اتهم بالرشوة والتربح وحققت معه النيابة ، ومع ذلك لم يصدر ضده قرار اتهام .

لأن اتهامه فى حاجة إلى وقت ، ولأن أدلة اتهامه تحتاج إلى وثائق وإلى أدلة دامغة لا تقبل النقاش .. إذا كان هذا يجرى مع موظف كبير أثبت الشهود أنه كان يرتشى من البدلة الطليانى إلى أكلة كباب ، ومع ذلك ترددت النيابة فى اتهامه ، فكيف يقدم بعض غير المسئولين على اتهام زعماء بالخيانة واتهام رؤساء بالتآمر ، دون دليل من أى نوع ؟!

قلت للبنت الخواجاية : ملاحظتك فى محلها ، وعندما كنت مسجونا فى سجن المحاريق بالواحات الخارجة ، أصدر تنظيم شيوعى يقوده واحد كان يبيع الحديد الخردة فى السبتية ، أصدر

هذا التنظيم حكما لا يقبل الاستئناف ، حكما بأن عبد الناصر خائن ويعمل في المخابرات الأمريكية ويحمل رقم كذا ويتقاضى مرتبا حددوه بالدولار والسنت ! ولم يخجل أحد من أعضاء هذا التنظيم من اتهام أعظم زعيم عربي في العصر الحديث ، وأعظم مناضل ضد الاستعمار في تاريخ المنطقة العربية!.. ولذلك فنحن لا نهتز لمثل هذه الاتهامات ، ونعتبر أصحابها مرضى أو مجانين .

قالت البنت الخواجاية : ولماذا تبقون مرضى على الدوام ؟! ألا تتعلمون من أعدائكم ؟! قلت : وماذا فعل أعداؤنا ؟ ردت البنت الخواجاية على الفور : أثناء قمة شرم الشيخ ، عقد شارون رئيس حزب الليكود مؤتمرا صحفيا أعلن فيه تأييده الكامل للقمة التي تجمع باراك بعرفات ، مع أن شارون لا يخاصم أحدا مثل باراك ، ولا يمقت أحدا مثل عرفات . ولكن لأن الظرف حساس ، والموقف يستلزم رص الصفوف والوقوف في خندق واحد .. كان لابد لشارون من إعلان تأييده لخصمه باراك . هذا حدث في إسرائيل .. أما عندكم فما الذي حدث ؟!

البعض راح يزايد في بورصة العمل السياسي ، فأخذوا يطالبون بإعلان الحرب على دولة إسرائيل .. والحرب لا بأس بها إذا فرضتها الظروف .. كما أن الحرب خدعة ، فهل نعلنها هكذا بدون تفكير وبدون تدبير ؟! وفي كل الحروب التي خاضها العرب ضد إسرائيل لم أعثر على أي أثر لهؤلاء الذين يطالبون بإعلان الحرب ! الأسطول القطري لم يظهر له أي أثر في البحر المواجه لإسرائيل ، والطيران القطري لم نشاهده إلا في الخط الذي يربط بين الدوحة ولندن !

قلت للبنت الخواجاية : دعيني أكشف لك عن سر .. لقد قمت

بدراسة الحروب العربية الإسرائيلية ، واكتشفت أنه لم يشترك باللحم الحي في المعارك إلا مصر وسوريا ، ثم تأتي العراق والأردن وبعض القوات الرمزية من السعودية والكويت والجزائر والمغرب . وإذا كان البعض لم يقدم فلوسا ولا أرواحا فلماذا فتحة الصدر التي ليس لها مبرر ؟! وهل يصلح العصفور لدور الفتوة ؟! يذكرني موقف الدولة إياها بالواد مرسي الجن .. كان نزيلا معنا في سجن الواحات ، وكان ممشوق القوام عريض المنكبين على رأي عادل إمام . وكان أشد المحرضين على الوقوف في وجه الإدارة ، وأكثر المطالبين بالدخول في إضراب عن الطعام ، وأشد الداعين إلى الدخول في معارك طاحنة ضد الحراس .

وكنا نبحث عن أخينا مرسي الجن عندما تقوم المعركة فلا نعثر له على أثر . ولكننا كنا نعثر عليه بعد المعركة يلف رأسه بمنديل ويسير منحنيا ورجلاه لا تقويان على حمله .. ولكنه يعود كما الوحش إذا كان وقت الكلام والتحليل والوصف في الكلام برينت .. وفي الفعل لا شيء !!

قالت : إذا كان هذا السلوك مبررا من جانب فرد ، فكيف يمكن تبريره من جانب دولة ؟! خصوصا إذا كانت هذه الدولة ليست وحدها في الساحة ، ولكنه يكاد يكون سلوكا عاما لجميع الدول والأحزاب والهيئات العربية .. وحتى على مستوى الأفراد كلكم نفس الشخص ، الحياة تبدأ بكل شخص منكم وتنتهي عنده . أثناء جولتي في بلادكم التقيت رجلا يدعى عبده تكتيك ، كان من رأيه أن كل سياسي عميل ، وكل موظف كبير خائن وكل شرطي سفاح ، وكل تاجر حرامي . أما هو - السيد عبده تكتيك - فهو نبع الوطنية ، ومصدر الشرف ، وهو

الفاروق الذى يدرك وحده الخيط الرفيع الذى يفصل بين الحق والباطل . ذات مرة فوجئنا بقبوله منصبا سياسيا متواضعا ، فسألناه كيف ارتضى لنفسه هذا الوضع ؟ وكيف وافق على قبول المنصب ؟! وكان رده غاية فى الغرابة . قال : مش أحسن ما حد من الخونة يستولى عليه ؟! وإذا كان هذا هو حال عبده تكتيك فهذا أيضا هو حال كل دولة من دولكم على حدة . بعد نكسة حرب ١٩٦٧ ، انقسم العالم تبعكم إلى عدة أقسام . فى الخليج انطلقت نغمة من صفوف بعض الشباب الذين يحتلون مناصب عليا بأن مركز القيادة فى الأمة قد ثبت فشله ، وينبغى أن ينتقل المركز إلى الخليج .. وفى العراق انبثقت ثورة بعد الهزيمة بعام واحد ، وجاء حزب البعث إلى السلطة ليتولى القيادة . وفى ليبيا حدث الشىء نفسه ورشحت ثورة الفاتح نفسها لوراثة الزعيم الذى امتلأ جسمه بالجراح . مع أن أى مراقب محايد كان بوسعه أن يكتشف أن كل المحاولات كانت كوميدية ، وأنه لم يكن بوسع أى جهة من التى تدعى الزعامة فعل أى شىء ، لأن الزعامة نفسها لم يكن سببها وجود زعيم فرض نفسه ، ولكنها كانت لسبب آخر ، هو أنه المركز نفسه الذى يعتبر مخزنا للبشر .. وللأسباب أيضا . إذا أردت عمالا ستجد مليون عامل ، إذا أردت متعلمين ستجد عدة ملايين ، إذا أردت محاربين ستجد جيوشا لا تحتاج إلا لتدريب ، لو أردت مهنيين فستجدهم بعشرات الألوف .. فى الوقت نفسه لم تكن هناك مراكز أخرى يمكنها أن تحل محل المركز الرئيسى . فى العراق مثلا لحظة وصول حزب البعث إلى السلطة لم يكن فيها أكثر من مائة شخص يجيدون الكتابة على الآلة الكاتبة ! فى لحظة تفجر ثورة الفاتح فى ليبيا لم يكن فيها إلا ثورة

يقودها مجموعة شباب متحمس .. ثم لا شيء بعد ذلك ! في الجزائر مثلا .. صاح أحد المسئولين بعد انتصار الثورة قائلا : من يأخذ منى مائة مقاتل مقابل عشرة عمال مهرة في أي مجال ؟!.. لم يكن المركز هو الذى فرض نفسه زعيما ، ولكن الظروف هى التى فرضت ذلك ، ومع ذلك فإن الأمة من المحيط إلى المحيط تصاب بديخوخة في لحظات الانهيار .. هل تعرف الديخوخة أيها الجحش الكبير ؟!

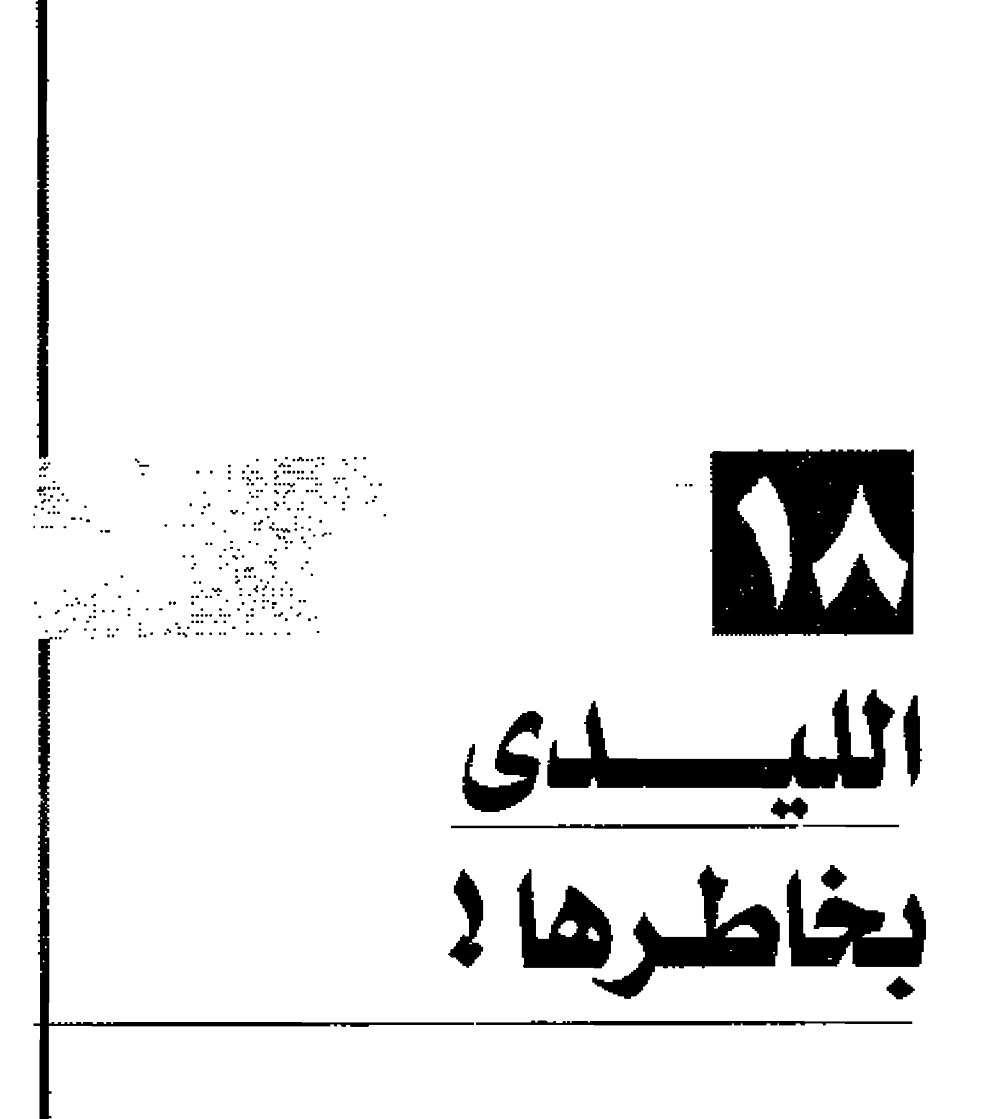
قلت للبنت الخواجاية : جحش وكبير ؟!.. لا يلتقيان . فماذا تقصدين ؟ قالت : هذه هى المعجزة ! أحوالكم كلها متناقضات .. أنتم العرق الوحيد من صنف البنى آدمين الذين اخترعتم أخطر سلاح منذ بدء الخليقة .

قلت مبتهجا : الحمد لله لأنك أخيرا وجدت فينا شيئا يستحق الشكر . ولكن .. ما هو هذا السلاح الذى اكتشفناه ؟ قالت البنت الخواجاية : أنتم لم تكتشفوه فقط .. أنتم اكتشفتوه واستخدمتوه أيضا ، وأشهد أنكم أحسنتم استخدامه . قلت : ولكن ما هو هذا السلاح من فضلك ؟ قالت : سلاح الأغانى ! أنتم تدخلون المعارك بالأغانى ! وتنتصرون فيها بالأغانى ، وتصنعون التنمية الاقتصادية بالأغانى ، وتزرعون الصحراء بالأغانى ! قلت : يا خواجاية ملاحظتك في محلها .. ولكننا لا نصنع كل شيء بالأغانى . قالت البنت متحدية: بل كل شيء ، حتى قانون الإصلاح الزراعى وتوزيع الأراضى على الفلاحين ! قلت : لم أسمع أغنية بهذا الخصوص ! قالت : ربما كنت صغيرا ، ومع ذلك خذ عندك :

طول عمرى لابس خيش ما كنت يوم جالعه مش لاقى حتى العيش والقمح أنا زراعه ، الله يخللى الجيش وعساكره منصورين ، ياللا يا واد يا عليش خدلك خمس فدادين .

دققت النظر في وجه البنت وصحت فجأة قائلا : هل أنت فعلا خواجاية ؟! ضحكت البنت وقالت في خبث : ومن أكون إذا لم أكن خواجاية ؟! قلت : يخيل إلى أنني رأيتك في زمن ما .. في مكان ما .. في هيئة تختلف . ضحكت ضحكة عالية ، فانعشت ضحكتها ذاكرتي الخامدة .. قلت وأنا أكاد أقفز من شدة الفرح .. يخيل إليّ أنك حمارة من شجرة حميرية ، وأظن - إذا لم تخني الذاكرة - أنك البنت الشقية بخاطرها بنت عم محمود الأعرج مبيض النحاس الشهير بالجيزة وأخت الكابتن حسن فوتبول الذي كان يلعب مع فريق البحر الأعظم بالجيزة .. أليس كذلك ؟!

لم أجد جوابا .. وفتحت عيني فلم ألمح البنت أمامي ، اختفت كأنها فص ملح وداب !



١٨

الليــــدى بخاطرها !

بحثت عن البنت الخواجاية فى كل مكان دون جدوى ، حتى همس فى أذنى الشيخ حسن عوف شيخ حارة الجيزة أنه شاهد بنت خواجاية فى حارة الأباصيرى فى الجيزة . هرعت إلى المكان الذى حدده شيخ الحارة ، اكتشفت أن خواجاية شارع الأباصيرى هى البنت لوسى بنت الخواجا ماروشيان الأرمنى الذى كان يعمل جزمجيا وسكن فى حارة الأباصيرى وأصبح واحدا من سكانها . وأصبح مصرى الشكل والسلوك والمزاج .

صار يقضى ليلته فى غرزة الحاج حامد الأشدل ، ويقضى نهاره فى دكانه يرمم الأحذية المثقوبة ويصنع الشباشب الزحافة . ولكن البنت لوسى استطاعت أن تنجو من مصير أخواتها ، فتزوجت من الخواجا بدروس ، وكان يملك مصنعا صغيرا لصناعة الدخان المعسل ، وذهبت لوسى لتعيش مع زوجها فى العباسية .

عدت أبحث عن البنت الخواجاية وفتشت فى أماكن كثيرة ، ولكن لم أعثر عليها . أخيرا فكرت فى الذهاب إلى حارة المنياوى حيث كانت تعيش أسرتها فى بيت تحول بعد موت أصحابه إلى خرابة ، ولكنى لم أجد هناك إلا أطلالا وتلالا من الأتربة والحجارة . سألت عم سيد

البقال إذا كان قد شاهد البنت الخواجاية ، أجابني ببساطة : جاءت إلى هنا بنت سائحة ومعها كاميرا صورت الخرابة التي أمامي وسألتني إذا كنت أبيع علب سجاير هلب ، ثم أبدت دهشتها عندما أخبرتها بأن السجاير الهلب اختفت من السوق منذ عشرات السنين . سألته : أين ذهبت ؟ قال : لا أعرف .. ولكن الحاج علي الفولي الكهربائي أخذها ليدلها على فندق بشارع الهرم .

خطفت رجلي إلى دكان عم الفولي وسألته عن البنت الخواجاية ، دلني على الفندق الذي نزلت فيه بشارع الهرم .

بعد قليل من الوقت كنت داخل الفندق وأقف أمام موظف الاستعلامات .. سألته عن البنت الخواجاية وأظهرت صورتها معي ، فأجابني بأنها موجودة وتستطيع أن تنتظرها ولكن لا تحاول الصعود إليها . قلت له : وهل انتظرها طويلا ؟ نظر الموظف إلى ساعته وقال لي : لقد أوصتني بأن أوقظها في الخامسة مساء ، نظرت في ساعتي كانت الثالثة بعد الظهر ، وعلي أن انتظر ساعتين ! توجهت نحو أحد المقاعد وجلست عليه ، وقلت لنفسي : سأنتظرها ولو اضطررت إلى البقاء حتى الصباح . في الخامسة تماما ايقظها موظف الاستعلامات وفي السادسة تماما نزلت البنت في أبهى زينة ، ولكنني لاحظت أنها ترتدي فستانا طويلا يغطي الركبتين ، وتلف حول رقبتها شالا يغطي عنقها ويتدلى على صدرها ، وعلى رأسها قبعة أنيقة تغطي شعرها . جلسنا نشرب الشاي معا حول مائدة في بهو الفندق . سألتها : ما الذي دعاك إلى الهرب ؟ وما الذي أغضبك منا ؟ قالت : لا شيء .. ولكنني سئمت الحوار معك ، سئمت ردودك التي تتسم بالغباء وقصر النظر ، فأنت في الحقيقة لا تناقش ، ولكنك تسلك سلوك محام مأجور

يدافع عن قضية خاسرة .. وأنا أطمع فى الحوار مع عقل مفتوح ولقاء شخص يعيش عصره ولا يقوم بالدفاع عن أسلوب الأسلاف وطريقة حياتهم . قلت لها : ولكنى بحثت عنك فى كل الأماكن التى تصورت أنك ستلجأين إليها ولم أجدك ! هل تعرفين إلى أى مكان ذهبت ؟ لزمت البنت الصمت ، فواصلت حديثى قائلا : ذهبت إلى بيتكم القديم المواجه لدكان عم سيد البقال . لم تبد عليها الدهشة ، ولكنها أجابتنى بالإيجاب ، سألتها : هل رأيت عمك سيد البقال ؟ قالت : لقد تحطم هو الآخر وصار جزءا من الأطلال . قلت : وبالطبع لم يتعرف عليك . قالت : وكيف يتعرف على أى شىء ونور عينيه لا يصل إلى تحت قدميه؟!

لزمت الصمت فترة قبل أن أقول لها : أغرب شىء أننى لم أتعرف عليك عندما رأيتك أول مرة ! والأغرب أننى لم أتعرف عليك خلال الرحلة التى امتدت شهورا طويلة ! لقد استطعت خداعى والتغرير بى ! قالت البنت : ليس فى الأمر أى نوع من أنواع الخداع . فأنا فعلا « بخاطرها » بنت حارة المنياوى ، وأنت تعلم أننى تزوجت من ضابط إنجليزى شاب ، وكان قد شاهدنى وأنا بالملاية اللف وكنت فى السادسة عشرة من عمرى ، وأنت تعلم كم كنت مليحة .. ويبدو أنه وقع فى هواى من أول نظرة . وجاء إلى بيتنا فى حارة المنياوى وعسكر بجواره ، وكان الوالد قد جعل من قهوة المعلم أمين محلا مختارا له . وكان المعلم أمين هو الواسطة لأبى عارضا زواج الضابط الإنجليزى منى ، مبديا استعداده لدفع أى مهر يحدده الوالد . ولكن الوالد رفض كل عروض الضابط الإنجليزى قبل أن يشهر إسلامه . وبعد أن فهم الضابط ماذا يريد الوالد بالضبط ، ذهب إلى الجامع

الأزهر وشهر إسلامه وصار اسمه عبد الله الأمين . وبالفعل أعلنت الخطبة ، وكان يأتى لزيارتنا يوميا حاملا إلينا الهدايا والملابس ، وأبدى اهتماما شديدا بإخوتى الصغار ، وكان يأتى فى كل مرة لزيارتنا وهو محمل بالهدايا واللعب والحلوى والفاكهة ، وكان أحيانا يقوم بإطعام إخوتى الصغار بيده . ثم عقد قرانى عليه ، وقضى وقتا فى تعليمى مبادىء لغته ، وكاد يرقص فرحا عندما تمكنت من تبادل الحديث معه باللغة الإنجليزية . وعندما عاد إلى بلاده اصطحبنى معه وفى البداية شعرت بالغربة ، وشعرت بالحنين إلى بلدى .. اشتاقت نفسى إلى أكلة ملوخية .. إلى حلة محشى ، تمنيت أن أشرب شوية مية طرشى . فكرت فى الهرب ، ولكنه عندما لاحظ ضيقى سمح لى بالعمل . كان قد ترك الجيش وأسس لنفسه مكتبا سياحيا ، وكلفنى بالعمل فيه . شغلنى العمل واندمجت فيه ، وأفادنى العمل .. فأتقنت اللغة الإنجليزية ، وشعرت بالفرق بين الأسلوب الذى نعمل به فى مصر والأسلوب المتبع هناك . منحنى زوجى الحرية فى التصرف كما أريد ، لم يكن يسألنى عن أى تصرف إلا إذا فاتحته فى الأمر . جعلنى هذا السلوك أتعلق به أكثر ، وأندمج فى حياتى الجديدة بشكل أوثق وشعرت بالسرور عندما كان يأخذنى فى الإجازات إلى رحلات إلى بلاد مجاورة ، زرت معه فرنسا وإيطاليا والنمسا وألمانيا . ذات مرة عرض على أن أدرس اللغة الفرنسية ، التحقت بمدرسة فرنسية واكتشفت أن الذى يجيد الانجليزية من السهل عليه أن يفهم الفرنسية أصبحت أجيد ثلاث لغات : العربية والإنجليزية والفرنسية ، أقول لك الحق ؟!.. لم أعد أشتاق إلى مصر ، وانقطعت صلتى بها تماما عندما بلغنى أن والدى توفى ، ثم لحقت به أمى ثم أختى الكبرى ، أما

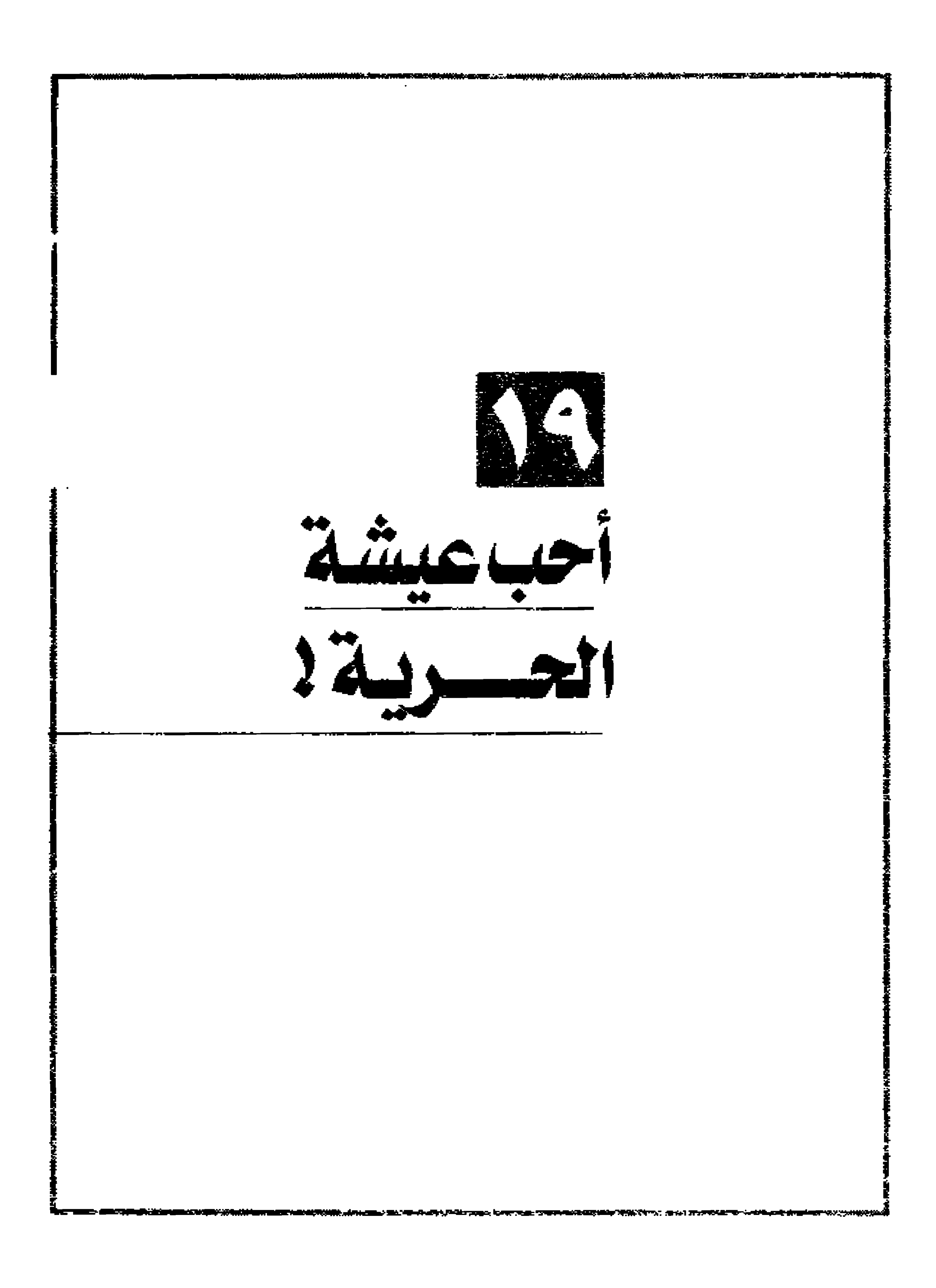
إخوتي الصغار فقد ضاعوا في الحياة ، وتزوجوا وذهب كل منهم إلى حال سبيله . اندمجت كما قلت لك في الحياة الجديدة . أصبحت أتردد على دور المسرح والسينما وأقرأ كل أسبوع كتابا جديدا ، واشتريت عدة أرقام في اللوتارية ، وأصابني الحظ فكسبت أربعة ملايين جنيه ، وعندما عرضت الأمر على زوجي وسألته عن الطريقة التي سأتصرف بها في المبلغ فوجئت به يقول لي : هذه الأموال خاصة بك ولا علاقة لي بها من قريب أو بعيد ، تضاعف حبي لزوجي ، واقتربت منه أكثر ، صارت لي سيارتي الخاصة وسكرتيرتي الخاصة ، وأردت أن أقدم هدية لزوجي في عيد ميلاده فاشتريت بطاقتي سفر إلى استراليا وقمت بحجز تذكرتي سفر إلى استراليا ، وحجزت أجنحة فاخرة في عدة فنادق في بعض الأماكن في استراليا . وكان زوجي شديد الفخر بي وبسلوكي وبطريقة استثمار أموالي . وحددنا سفرنا قبل رأس السنة بثلاثة أيام . وبينما كان زوجي عائدا إلى بيتنا ـ وهو يقع في منطقة ريفية على بعد ٥٠كيلومترا من قلب لندن حيث يقع مكتب زوجي كان المطر ينهمر بشدة ، والرؤية متعذرة ، وزوجي كان متعبا ، وإذا بالإطار ينفجر وتنقلب السيارة ويموت زوجي في الحادث . لم أحتمل البقاء في لندن بعد وفاته فقررت الهجرة إلى باريس ، وافتتحت مكتبا لي هناك ، والتحقت بجامعة السوربون ، وعندما اتممت دراستي التحقت بالدراسات العليا وتخصصت في دراسة العصر الحميري .

وعندما رأيتك أول مرة في باريس عرفتك ، لأن شكلك لم يتغير كثيرا ، فأنت الواد محمود الذي كان يلعب الكورة في حارتنا ، وكنت أحيانا تعترض طريقي وتنطق بكلام يخدش حيائي . وفي تلك الليلة

التى وقع بصرى فيها عليك كنت فى قمة الملل فأردت أن أتسلى ، وعندما لم تتعرف على شخصيتى ، ولم تدرك أننى البنت بخاطرها ، قررت أن أقوم بمغامرة ، وأن أقوم برحلة إلى موطن رأسى فى صحبتك . وهكذا ترى أن لعبتى دخلت عليك ، وأنك لم تستطع كشفى فى أى وقت .

قلت للبنت : يخرب عقلك ، إذن أنت « الليدى بخاطرها » ولكن بعد أن طرأت عليك تحسينات كثيرة ، حتى أصبحت فى مستوى ملكات الجمال ؟!! ولولا أننى أصبحت عجوزا درديبيسا لطلبت منك أن تقبلينى زوجا لك ! أشاحت البنت بوجهها وقالت بعصبيه : ومن قال لك إننى أرغب فى الزواج منك حتى لو كنت شابا مكتمل العافية شديد النشاط ؟! تجاهلت جوابها وقلت لها : طيب .. وماذا تنوين فعله الآن ؟ قالت : سأشترى قطعة أرض فى الطريق الصحراوى وأقيم عليها قصرا وأقوم بإصلاح عدة أفدنة بجوار القصر أزرع فيها خضراوات وفاكهة لزوم استخدامى الشخصى وحتى أضمن عدم تلوثها . سألتها : ولماذا لا تقيمين فى فندق ، وهو أمر أكثر راحة لك وأرخص ، لأن القصر سيحتاج إلى خدم وإلى حراس ، والأرض الزراعية ستحتاج إلى فلاحين ، وفى هذه الحالة ستتكلفين أموالا طائلة ؟! ردت البنت : أنا لا تهمنى المصاريف .. أنا أبحث عن راحتى ، وقلت لك إننى ثرية وعائد أموالى فى البنوك يضمن لى حياة مرفهة ولا أيام المهراجا عثمان حيدر أباد ! قلت لها : طيب ربنا يزيدك من نعيم الله ، ولكن التبذير مكروه على كل حال . قالت : لا تبذير فى بلدنا .. ولكن التبذير هنا فى الغرب ، لأن ما يكلفك مائة جنيه يتكلف هناك ألف جنيه لأن المعيشة غالية والأجور غالية والمواد الأولية غالية .

قلت لها : ولكن التكاليف حتى بالأسعار فى بلدنا يعتبر تبذيرا خصوصا أنك لن تقيمى معنا سوى عدة أيام ، وإن طالت فإلى عدة أسابيع . قالت : الحقيقة أننى سأقيم إلى الأبد، وسأقيم لنفسى مقبرة داخل حدود القصر لكى أموت هنا . قلت : غريبة ؟! حياتك هناك ، وفلوسك هناك ، وكل اصدقائك هناك .. ماذا تفعلين هنا ؟ قالت : الواقع أننى اشتقت إلى الحرية . قلت : معنى هذا أن الحرية هنا ؟! قالت : بكل تأكيد ، قلت : طيب .. وماذا يكون الموجود فى أوروبا ؟ قالت : عدوك ، إنها قصة طويلة وعجيبة وتحتاج إلى وقت طويل . وأعدك بأن أشرح لك كل شىء وبالتفاصيل . قلت : على كل حال مرحبا بك فى بلادك ، وسيكون لدينا الوقت الكافى لنتحدث ونبغبغ ونحكى ونعيد .. ولكن قصتك يا بنت يا مضروبة تصلح أبلغ مثال على أعاجيب هذا الزمان !!



١٩

أحب عيشة الحـــرية !

سألت البنت الخواجاية : ماذا قلت ؟! قالت : قلت ما سمعته . قلت لها : تقولين بلادنا هي بلاد الحرية ؟! قالت : وهي كذلك بالطبع . قلت : كيف ؟! قالت : للأسف الشديد أنتم أصابكم عمى فلم تعودوا تبصرون تحت أقدامكم ، لو تعلمون مدى الحرية التي تتمتعون بها لتخلصتم من عقدة الخواجة ، والذى تجهلونه أن كل خواجة لو أدرك مدى الحرية التى تتمتعون بها لعبر البحر وجاء إلى هنا وأقام على أرضكم إلى الأبد . قلت لها : هل يمكنك شرح الأمر حتى يتسنى لى أن أعرف وأن أفهم ؟!

قالت البنت : ماذا أقول لك وكل شىء أمامك وتحت عينك وهو الشارع الذى تقطعه كل يوم عشرات المرات . هل رأيت الشارع الذى تمر فيه ؟ لو أنك دققت النظر وفكرت كثيرا لأدركت مدى الحرية التى يتمتع بها شارعكم . إنك فى الشارع حر ، وتستطيع أن تفعل به وتفعل فيه أى شىء وكل شىء بداية من لعب الكورة فى نهر الطريق إلى قضاء الحاجة ! فى الشارع الممتد على فرع النيل الممتد من كوبرى الملك الصالح وإلى فم الخليج ، وبجوار أشجار أم الشعور - وهى أشجار لا مثيل لها فى المنطقة العربية - رأيت صفا طويلا من

البشر يعطون ظهورهم للشاطيء ووجوههم للشارع ، جلسوا جميعا في راحة كاملة يقضون حاجتهم في هدوء وكأنهم يؤدون مشهدا في فيلم أو يؤدون لعبة في الأولمبياد ! هل تعرف مدى الغيظ الذي استبد بي عند رؤيتي لهذا المنظر ؟! هل تدرك مدى الغل الذي عربد في نفسي عندما رأيت إحدى السيدات تتمدد على كوبري الشيراتون في الهواء الطلق . وبجوارها خمسة من أبنائها ينامون في اطمئنان ويتلعبطون على الأرض البراح ؟ في أحيان كثيرة تستبد بي رغبة عارمة في أن أتمدد على الأرض ، أن أتنزه في نهر الطريق في شارع أكسفورد بلندن أو شارع الشانزليزيه في باريس ، ولكنني لا أستطيع أن أفعل شيئا من ذلك . لأن القوانين تمنع والتعليمات تقف ضد تنفيذ رغباتي . ولكن في بلادكم ـ بلاد الحرية ـ كل شيء ممكن وكل شيء مباح . حتى في البناء في الشارع نفسه يجوز ! اذهب إلى شارع فيصل بالجيزة وستجد أن هناك عمارات طويلة أكلت من الشارع نفسه دون خوف أو حياء . وعلى شاطيء النيل من إمبابة إلى القناطر الخيرية ستجد الشارع العمومي انكمش أمام زحف العمارات التي نشأت عشوائيا على شاطيء النيل . وقيل إن مجلس المدينة وقف عاجزا أمام هذا الزحف المغولي ، والسبب إيه ؟! قالوا إنها سيادة القانون . ولكن هل تقف سيادة القانون ضد النظام وضد تنظيم الحياة ؟! الحقيقة أن الحرية ليست لها حدود ، وهي كالبحر المحيط ليست لها شواطيء . ولكن في بلادنا ـ بلاد الخواجات ـ لا أحد يستطيع أن يغير لون المبني أو يقوم بتغيير الطراز . كل شيء مقيد بالخرائط والرسوم . حتى لون النوافذ لا يمكن تغييره ، والمقاسات لا يمكن تجاوزها . عندي بلكونة في شقتي المطلة على شارع أوجوار

بلندن ، في ليالى الصيف القليلة التى تشهدها لندن أحب الجلوس فيها أشم نسمة هواء شاردة ، قمت بتركيب لمبة كهرباء في البلكونة لتتيح لى فرصة للقراءة وأنا جالسة فى النافذة . ولكنه حلم لم يتحقق ويادهية دقى .. تحركت كل الأجهزة لتحاكمنى ، مجلس المدينة ومكتب اللورد لاند والبوليس ، ليه ؟ أن نور الكهرباء فى البلكونة يحجب الرؤية السليمة عن سائقى السيارات الذين يقطعون الشارع !

فى بلاد الخواجات - بلاد الضيق والتضييق - لا يمكنك تجاوز الارتفاع المسموح به فى الشارع . البيوت كلها متشابهة فى الطول وفى الرسم وفى اللون . لدرجة أنه فى ليالى الشتاء التى يغلفها الضباب يخطىء كثير من الناس فى بيوتهم ! قارن بين هذا الوضع فى بلاد الخواجات والوضع فى بلادكم . اقطع أى شارع عمومى فى بلدكم ، ستجد ناطحة سحاب بجوار عشة وبيتا قزما إلى جوار سراية ولا سراية السلطان قلاوون !

انظر إلى السيارات التى تقطع الطريق ، سيارات من أول جيل سيارات أنتجته مصانع فورد وسيارات تركت المصنع بالأمس سيارات بأضواء وسيارات بدون ، سيارات لها نفير وسيارات بكلاكس ، وسيارات مجهزة بسارينات كتلك التى تنفرد بها سيارات الإسعاف والبوليس ، سيارات بها كل الأجزاء وسيارات بلا رفارف ، وسيارات بلا زجاج وسيارات بدون اكصدام وسيارات بلا شنطة خلفية وسيارات بلا غطاء للموتور وسيارات بدون فرامل وسيارات بدون أرقام . كل سيارة وصاحبها حر فى سيارته ، وحريته بدون حدود وبدون ضوابط ، أين هذا كله من حال أصحاب السيارات فى بلاد الخواجات . هل يستطيع أحد أن يركب سيارة بدون إشارات أو

بدون أنوار ؟ ثم انظر إلى السيارات المتوقفة في شوارعكم ، سيارات راكنة بجوار الرصيف ، وسيارات راكنة على الرصيف ، وسيارات راكنة في صف ثان ، وسيارات راكنة في عرض الطريق ، وسيارة منطلقة بجوار سيارة والسائقان يتبادلان النكت ويتجاذبان أطراف الحديث ! وسيارات وكوكبة من الموتوسيكلات والجميع يسدون الطريق ولا يسمحون لأحد بالمرور ، ليه ؟ لأنهم يزفون عروسة ، وعقبال عندكم ونخدمكم بإذن الله في الأفراح ! هل هذه الحرية متوافرة في أى مكان ؟!

أنظر إلى هواء المدينة وقد تشابكت فيه كل الأصوات كالموج المتلاطم ، مكبر صوت يذيع فيه رجل يدعو الناس إلى التقوى واتباع طريق الخير ، ويعظ المخالفين ليضمنوا دخول الجنة ، ومطرب صوته مثل صوت الحمار يحيى ليلة فرح .. وسلام مربع للحاج شعبان ، وأسرة الحاج شعبان ، وعيال الحاج شعبان ، ورجالة الحاج شعبان وواحد بميكروفون بينادى على الروبابيكيا وآخر بينادى على البطيخ الشليان ، وثالث بينادى الناس من سيارة ويدعوهم عبر الميكروفون للتبرع لمعونة الشتاء وأحيانا لمعونة الصيف ! وبالأمس فقط رأيت متسولا عجوزا وصحته جيدة صوته أعلى من صوت الميكروفون ، وقف على ناصية الشارع يصيح بأعلى طبقة صوت ويدعو للمحسنين (يا رب نور طريقهم وحقق مقاصدهم) .

انظر إلى القهاوى المنتشرة على طول الطريق وحاول أن تستمع إلى الراديوهات والتليفزيونات المفتوحة ، بعضها يلعلع بأغنية لمطرب مشهور . والبعض الآخر يذيع مسلسلة تصور إحدى حلقاتها خناقة دبت في حارة من حارات سوق السلاح . وأخرى تذيع مباراة كرة

قدم والمعلق يصيح في جنون : خد وهات وبيعدل وهويا .. وفوق .. فوق العارضة .. هارد لك يا كابتن ..

أين هذه الحرية المفتوحة مما يحدث في بلاد الضغط والإرهاب - بلاد الخواجات - ونهار أبوه أزرق من يسمح لجهاز الراديو بتاعه بأن يتسلل إلى خارج الجدران .

ولا شك أن عبقريتكم هي التي جعلت من شارعكم إحدى عجائب الدنيا السبع ! فهو شارع سكلانس فيه ملامح من ريجنت ستريت في لندن والشانزليزيه في باريس وفيافينتو في روما ، ولكنه في الوقت نفسه فيه ملامح قوية من المروج والصحارى ! ألم تشاهد في الشارع قطعان الغنم وهي تقطع الشوارع يهش عليها نساء في ملابس الأعراب ؟! هل رأيت قوافل الجمال وهي تجوب الشوارع وتعبر الكبارى وتزاحم الأتوبيسات وتسابق الناس ؟!

مدنكم يا حمارى الصغير خرافية ، وشوارعكم أسطورية ! وأنتم تستمتعون بحرية ليس لها نظير في أى مكان على ظهر الأرض وأغرب شيء أنكم لا تقدرون قيمة ما بين أيديكم وتقضون العمر كله في اختلاس النظر إلى الشاطئ الآخر على البحر الأبيض ! هل تعرف أننى بعت سيارتى الخاصة لكي أسدد قيمة الغرامات ؟ ولم أكن قد ارتكبت جريمة وكل ما فعلته أننى تركتها في الشارع بجوار الرصيف، وعندما عدت بعد نحو ربع ساعة وجدت ورقة على زجاجها الأمامى . وكانت من موظف البلدية وقد حكم بتغريمى ٦٠ جنيها . ولم أهتم في الحقيقة فأنا غلطانة وعلى أن أتحمل عواقب غلطتى . ولكن قاتل الله الشرود والنسيان ! فسرعان ما نسيت الأمر كله ، وسافرت من لندن إلى باريس ، وقضيت في باريس عدة أشهر ، وعندما عدت

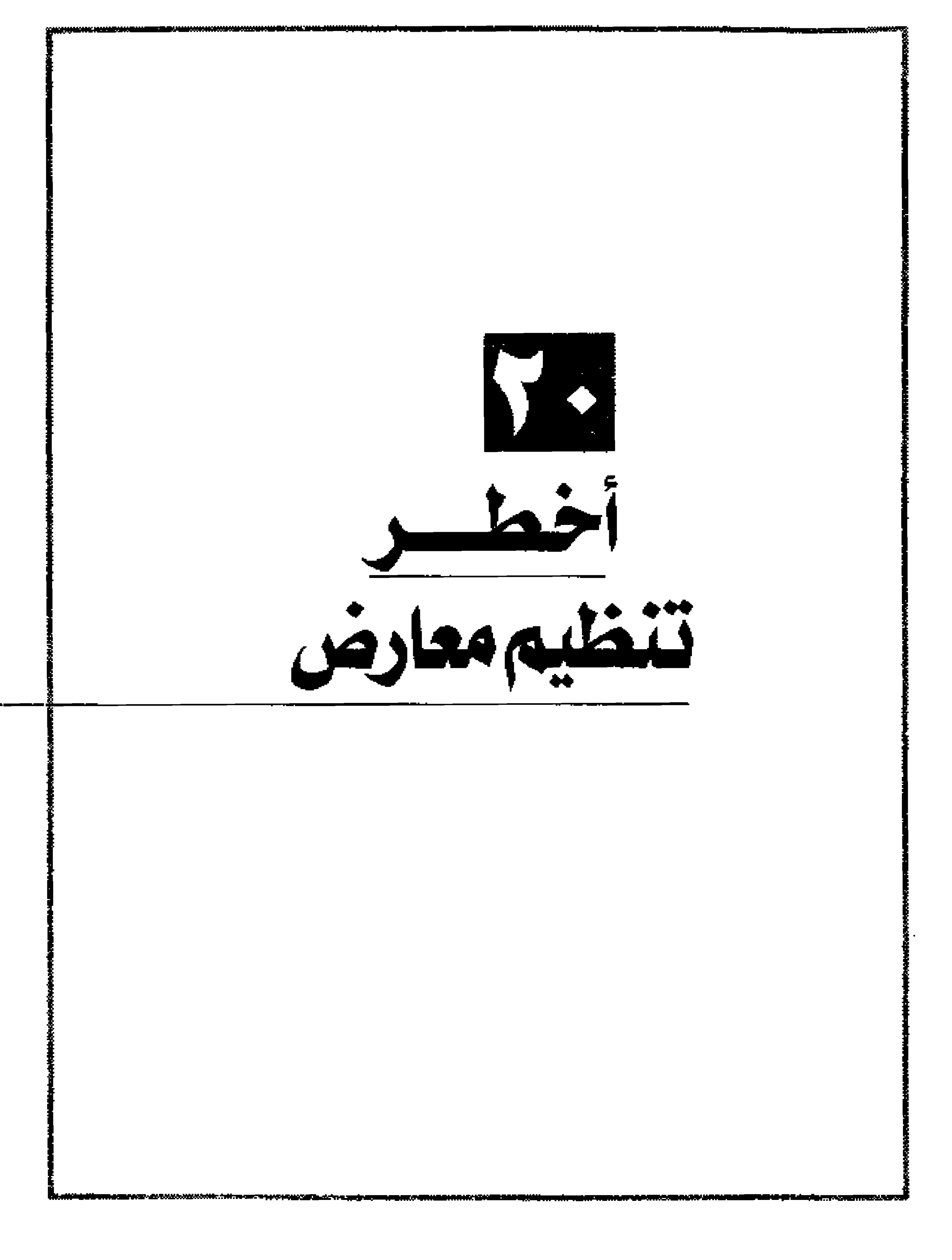
إلى لندن وجدت في صندوق البريد عدة خطابات بعدد أوراق الكوتشينة . بعد مرور أسبوع واحد على الموعد الذي حددوه لدفع الغرامة ، تضاعفت قيمة الغرامة بشكل تلقائي فأصبحت ١٢٠ جنيها إنجليزيا ، ثم ارتفعت بعد أسبوع آخر إلى ٢٤٠ جنيها ، ولأنني غبت شهورا طويلة في باريس فقد بلغت الغرامة سقفا عاليا لا يمكن تصديقه ، وهكذا وجدت نفسي مطالبة بدفع عدة ألوف من الجنيهات ، ومن حسن الحظ أنني قمت بحل المشكلة في الوقت المناسب . وجدت نفسي أصرخ من الغيظ وأصيح في وجه البنت الخواجاية : تقولين في الوقت المناسب وقد حكموا عليك بغرامة تبلغ عدة ألوف من الجنيهات ؟! أجابتني في بجاحة : نعم قلت في الوقت المناسب وأكررها مائة مرة . وهل تعرف لماذا هو الوقت المناسب ؟! لأن الحكم بسجني كان هو الخطوة التالية ، والغرامة بالنسبة لي - ومهما بلغت - أمر محتمل بالنسبة لي ، ولكن السجن لا أحتمله ولا أطيقه . وإذا صدر حكم بالسجن فلا توجد طريقة تمكنك من إلغائه أو تأجيله وهذا هو السبب الحقيقي الذي دعاني للتخلص من السيارة حتى لا أجد نفسي فجأة خلف الأسوار ، ولكي أريح رأسي فجأة خلف الأسوار ، ولكي أريح رأسي قررت استخدام التاكسي . هذا ما حدث لي هناك.. فما الذي حدث لي هنا ؟! كنت مدعوة إلى حفل عند بعض الأصدقاء في شارع رئيسي من شوارع القاهرة . عندما وصلت إلى البيت ، استقبلني بعض أصحاب البيت في الشارع . نظر بعضهم في ساعته وقال : لقد تأخرت قليلا ولكن لا بأس ، ثم دعوني إلى الخروج من السيارة سألتهم ولكن أين المنادي الذي سيأخذ السيارة إلى الجراج أو إلى الموقف . ضحكوا هازئين مني .. وقالوا : أي جراج وأي

موقف؟ اتركيها مكانها وهيا أسرعى . قلت لهم : ولكنها فى الشارع.. قالوا : فى الشارع وفى الميدان .. لا شىء يهم ، وبالفعل تركت السيارة مكانها فى الشارع ، وقضيت وقتا طويلا فى الحفل وخرجت بعد منتصف الليل ، لأجد السيارة مكانها ، ولكن الشىء الذى جعل قلبى يسقط فى قدمى أننى وجدت رجل بوليس بجوار السيارة ، وقلت لنفسى : جالك الموت يا تارك الصلاة ، ولكنى فوجئت عندما اقتربت من العسكرى أنه رفع يده إلى رأسه بالتحية لى ، ثم قال لى .. كل سنة وأنت طيبة ، ولم أفهم معنى العبارة ، كما أنه لم يحدد السنة التى يعنيها ويدعو لى بأن أكون طيبة وبخير حتى أصل إليها .. هل أدركتم الآن أى جنة تعيشون فيها ؟! وأى حرية ترتعون فى ظلها ؟ لو أنا مكانكم لانحنيت على الأرض وقبلتها ، ولسجدت لله شكرا لأنه منحنا هذه الأرض ومنحنا الحرية لنستمتع بها . أنا مثلا لم أشاهد خطوطا بيضاء تحدد الطرق التى يجب أن يسلكها المشاة ليعبروا الطريق .. وكأن الطريق وقف للسيارات وركابها ، ولكن هل امتنع المشاة عن عبور الطريق ؟! إنهم يقتحمون الطريق فى أى لحظة، يتحدون السيارات ويمرقون بينها كالطيور السابحة فى الهواء أحيانا يلعنهم السائقون ، وأحيانا يلعنون السائقين ، ولكن العلاقة لم تنقطع بينهم ، السائقون يقطعون الطريق كالسهام ، والمشاة يعبرون الطريق كالوجى الوجل على رأى الشاعر ! الفريقان يتعايشان لأنه لا سبيل أمامهما إلا التعايش بالرغم من المخاطر والكوارث .. لو فكرتم عميقا فيما حباكم الله من النعم والخيرات لقرت أعينكم واطمأنت قلوبكم وتوقفتم عن النظر إلى دول أوروبا التى تحسدكم على حريتكم وترنو إلى مشاركتكم فيها ، ولكنهم لأنهم غشاشون كاذبون ، يأتون إليكم

تحت دعاوى باطلة . إنهم يدعون أحيانا أنهم يأتون إلى بلادكم تحت دعوى السياحة ، وأحيانا يأتون إلى هنا تحت دعوى الاستثمار ، ولكنهم يأتون إلى هنا فى الحقيقة للاستمتاع - مثلكم - بحريتكم التى ليس لها مثيل .

والغريب أن حريتكم غير مقيدة فى الشارع فقط . ولكن حريتكم لها أوجه كثيرة .. ولكن هذا حديث آخر ..





٢٠

أخطر تنظيم معارض

هذه بلاد سمحة ومسالمة ولا تحب العنف ، حتى شبابكم يقبل على الرياضات التى تضمن السلامة وتحقق الربح : كرة قدم ، كرة يد ، سباحة ، لم أعثر بين شبابكم على سائق سيارات يشترك فى السباقات الدولية ، وليس بين شبابكم متسلق جبال أو بطل مصارعة حرة ، أو بطل ملاكمة ، كما أن المهاجرين منكم يسكنون فى أماكن تشبه حارات اليهود . يطبخون طعامهم ويمارسون حياتهم الأسرية كأنهم لم يغادروا أرضهم الطيبة فى أى وقت . وكذلك المجرمون منكم ليسوا فى الحقيقة مجرمين ، ولكنهم أفراد ارتكبوا جرائم فى ظروف معاكسة .

حتى سياراتكم تركبونها براحتكم لا تحكمون إغلاق زجاجها أو أبوابها ، لأن الطريق أمان والدنيا ربيع والجو بديع وكل شىء عال العال ، بينما فى الغرب كل سيارة هى قلعة حصينة للشخص . لأنك لا تضمن أن يهاجمك مجرم ويفتح الباب وينهال عليك بالسكين . وأحيانا بالرصاص . كنت أذهب إلى منزلى فى ضواحى لندن ليلا وأنا ارتجف من شدة الخوف . وكنت إذا سرت فى الشارع اتلفت حولى ، وفى نيويورك كنت أتحاشى الخروج وحدى نهارا ، أما فى

الليل فإقامتي محدودة داخل منزلي .

هنا الأمر يختلف أمشي وحدي في النهار وأمشي وحدي في الليل إذا مكثت في البيت يمتلىء المجلس بالصديقات والجارات فنشرب الشاي ونثرثر . هناك في بلاد الغرب لو جلست العمر كله في البيت سأجلس وحدي . ولذلك ينتحر كثير من الناس ، بينما هنا لا ينتحر أحد ، لأن الحياة صاخبة وزاعقة ومزعجة أيضا . ولكن الإزعاج أحلى مائة مرة من الموات .

يكفي أن تفتح نافذتك لتطل منها على الشارع . ولو فعلت ذلك فلن تحتاج إلى الخروج أو الفسحة أو الاختلاط بالناس .. ففي بلادكم كل شيء يوحي بالحياة وبالنبض ، حتى في احتفالات الموت التي تسمونها حفلات العزاء ، الميكروفون يزعق في الحي كله بصوت المقرىء . فإذا كان المقرىء جيدا أشاع البهجة في نفوس الجميع ، وفي الأفراح سيلعلع صوت المطرب وأحيانا صوت المطربة إلى جانب صوت الموسيقي ، وسيفرح الجميع مع أصحاب الفرح ، و « كل سنة وأنتم طيبين » في الغرب لا فرق بين حفلات الميت واحتفالات الزواج . ما عدا شارة بحجم ورقة البوستة يعلقها المعزون في عروة الجاكتة .

هل تعلم يا حماري الصغير أنني منذ وطئت قدماي هذه الأرض لم أشعر بحزن ولم أحمل هما من أي نوع . اشتري الخضار الطازج كل يوم من خالتي نفيسة وتتبرع بحمله بنفسها إلى منزلي ، وتحت منزلي قهوة تفتح أبوابها حتى الصباح ، ولو كان لمثل هذه القهوة وجود في أي عاصمة غربية لاستدعوا لها البوليس وربما المطافيء والإسعاف . أنا شخصيا وجدت في القهوة أحد أسباب الأمن والاطمئنان . فمن

من اللصوص يفكر في سرقة بيت يوجد بأسفله قهوة ؟ خصوصا أن القهوة في بلادكم تختلف عن القهوة في الغرب . فالقهوة عندكم هي مقر رابطة أصدقاء . رواد القهوة جميعا يصبحون شلة أصدقاء ، يشكون مواجعهم لبعض ويفرحون لأفراح بعض ، وإذا اعتدى غريب على أحدهم فإذا هي حرب ، ولا حرب داحس والغبراء . بينما يتردد بعض الناس على القهوة عشرات السنين في الغرب دون أن يقترب مني أحد أو يتعرف عليّ أحد . ولذلك قررت أن أبقى هنا وأبني مسكني وأفكر في بناء قبري أيضا ، فلابد أن الحياة فوق الأرض أثرت على الحياة تحتها . لابد أن هناك ممارسات تبهج القلب وتنعش الفؤاد . لقد قررت أن استقر حيث انتمي في الأرض البراح والنفوس البراح أيضا . أنا أتعامل مع أحد « الفكهانية » وأذهب إليه بنفسي لأشتري كيلو تفاح فيمد يده لي بخوخة أو برقوقة أو بعنقود عنب صغير . في بلاد الغرب لو مددت يدي نحو الفاكهة لقطع يدي على الفور . أنت تطلب مرادك فقط ، والسيد البائع يتولى اختبار الفاكهة واختيارها ، وعلى البائع تحديد الثمن ، وعليك الدفع ، ثم الانصراف « سكيتي » بدون سلام ولا كلام . هل تعلم ماذا أفكر فيه الآن ؟ أبحث عن رجل حمش وبشوارب لأتزوجه ، وشرطي الوحيد أن يكون من النوع الذي يغار عليّ من عيون الناس . كان زوجي البريطاني لا يغار عليّ من أحد

كنا ذات مرة في شاطىء برايتون وكان بالشاطىء جزء للعراة . فخلعت ملابسي ووقفت ، بينما كانت عيون البعض تلتهمني بشراسة . ولم يبد على زوجي أي ضيق ، بل العكس هو الذي حدث .

كان سعيدا لأن الناس افترسوا لحمى بأعينهم ، ولذلك سئمت هذا الصنف ، وأريد رجالا من نوع سى السيد يغار ويغضب ويضرب أيضا ، وسيكون مصيرى آمنا ومستقبلى مضيئا ، لأننى أنا التى اخترت الصنف الذى أحبه وأهواه . صحيح أن هناك على الشاطىء الآخر من النهر أشياء كثيرة افتقدها هنا ، هناك نظام ولكن ليس هناك حياة ، وهناك حب ولكن ليس هناك رجال ، وهناك قانون ولكن ليس هناك إنسانية . وهناك لا توجد رشوة ولا محسوبية وإن كان للكوسة جذور وبذور أيضا . فى الغرب رسوم مرسومة وغير منظورة ، ولكن لا يمكن لأحد أن يتخطاها أو يتجاهلها . الجامعات الكبرى لأبناء اللوردات ، لوردات المال والصناعة والبنوك . المجال الدبلوماسى لا مجال فيه لأبناء العمال وأبناء صغار الموظفين ، كما أن العمال وصغار الموظفين لا يسعون لتوظيف أولادهم فى هذا المجال لأن مثل هذه المجالات تحتاج إلى من ينفق من جيبه عليها دون انتظار أى مردود منها . المناصب السياسية العليا محجوزة لأبناء طبقة واحدة . الطبقة التى أنشأت المستعمرات وبنت الامبراطورية ، أحيانا يسمح لبعض الغلابة بالمرور من عيون القناطر الضيقة ، ولكن هذه ليست قاعدة ، ولكنه الاستثناء الذى يثبت القاعدة ، كما حدث مع مستر ميجور رئيس الوزراء البريطانى وهو الذى بدأ حياته لاعب سيرك وكابتن فريق كريكت محترفا . ولكنى للحق أقول : إن القوانين تطبق على الجميع ، والعدل يشمل الجميع ، وليس للوزير ميزة على الخفير، بل الصحيح أن ميزات الوزير تقل ، وكلهم أمام القاضى سواء . لعل ذلك هو ما ينقصكم ، لو تساوى الوزير مع الخفير فى الحقوق

عندكم ، لو وقف « الصايع » أمام القاضي رأسه برأس مدير البنك لأصبحتم أحسن بلاد العالم ، فصدقني إذا قلت لك : إنكم أذكى من أهل الغرب بكثير . أي صايع هنا يستطيع أن يفهمها وهي طايرة ، وعندكم خفة دم ليست متوافرة لأغلب الناس هناك ، وعندكم حياء يثبت أنكم أبناء حضارة عظيمة ، هناك عيب يفسد كل شيء هو غباء وفساد الإدارة . بعض الموظفين عندكم لا يعرفون ما هو دورهم الحقيقي ، وبعض اللوائح عندكم وضعها حمقى وغير مؤهلين ، ولذلك تأتي أغلب اللوائح حمالة أوجه ، فهي تبيح وتمنع في نفس الوقت . وهي تسمح وترفض في نفس الوقت . وهنا مربط الخطر ، فالموظف هو الذي يشرح ويفسر ويتخذ القرار أحيانا حسب تفسيره ، ويكون تفسيره دائما حسب هواه ، بينما الموظف في بلاد الغرب لوائحه بسيطة ومحدودة والاجتهاد بشأنها ممنوع . وعندما يكون الاجتهاد ممنوعا فقد أغلقت باب الرشوة وقضيت على المحسوبية ، فلا كرامة لأحد أمام اللائحة ، ولا قيمة لقريبك أو عديلك أو بلدياتك ، فالقانون هناك ليس فيه زينب ، بينما القانون عندكم فيه زينب وفاطمة وعبدالموجود . وعيب الموظف هنا أنه طهقان وزهقان من حياته ، وهو يفش غله في الناس ، وهو يعقد الأمور ولا يسهلها ، وهو نكبة على حكومته لأن الناس تكره الحكومة أحيانا بسبب الموظفين ، والحكومة عند أغلب الناس هي الموظف ، كما أن الحكومة عند أغلب الحرامية هي ضابط المباحث . ولذلك تسوء حياة الناس عندما يحاولون حل مشاكلهم عن طريق الموظفين ، بينما مهمة الموظفين في الغرب تسهيل حياة الناس . ولذلك يعتبر الموظفون في الغرب سندا للحكومة ، بينما

الموظفون هنا تنظيم ضد الحكومة . وهو تنظيم قوى لأن الوزير يبقى وقتا ثم يذهب ، بينما الموظف موجود فى مكانه لا يتزحزح . وليس تغيير الموظفين هو الهدف ، ولكن الهدف هو تغيير الفرمانات الغامضة والقرارات التى تحمل أكثر من وجه . وينبغى توفير العيش الكريم للموظف حتى لا يضطر إلى مد اليد . وهى أشياء سهلة ويمكن تدبيرها ، وخصوصا أن ملياراتنا كثيرة بشهادة رئيس الوزراء عاطف عبيد . حبذا لو وعدنا رئيس الوزراء بتدبير كام ميت مليار لحل هذه المشاكل البسيطة ، ولو فعل فستصبح الدنيا ربيع ، والجو بديع ، وقفللى على كل المواضيع .

والآن يا حمارى الصغير .. لقد كشفت لى سرى وعرفت أصلى وفصلى ، كما عرفت نواياى وخطواتى فى المستقبل . لقد صارحتك يا حمارى فهل تصارحنى ؟ إننى أبحث عن زوج شهم وغيور وحمش وسى السيد .. فهل تتزوجنى ؟ قلت لها : أنا تحت أمرك إذا كان المطلوب زوجا عجوزا مهدود الحيل مقطوع القلب ، أما حكاية شهم وغيور وحمش وسى السيد ، فأنا أعدك إذا كنت مصرة أن أبحث عنه فى كل مكان ، بشرط أن يكون من حقى الحصول على الحلاوة مع الشكر .

والآن أستودعك الله يا بنت حتتى يا خواجاية ، وأهلا وسهلا بك فى بلدك وبين أهلك وسأكون تحت أمرك فى أى وقت !

انتهت وإلى لقاء قريب .


روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية